الجزء الثاني من الجامع المفيد في بيان مسائل التوحيد

15) باب قول الله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ . أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ . وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ . وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ)

- مناسبة الباب : بعد أن حذر في الأبواب السابقة من عدة صور من صور الشرك الأكبر ناسب هنا أن يذكر أن هؤلاء المدعوين مع الله سبحانه وتعالي أو المستغاث والمستعاذ بهم لا يستطيعون شيئا ؛ فإن الله قد أثبت لهم العبودية له سبحانه ، والعبد لا يكون معبودا ، غير أنهم مخلوقون مربوبون لا يستطيعون أن يخلقوا ، ولا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن أن ينصروك أو يغيثوك أو يعيذوك ، بل لا يستطيعون جلب نفع لأحد أيا كان نوع هذا النفع ، ولا دفع ضر عن أحد أيا كان نوع هذا الضر ؛ ومن كان حاله كذلك واتصف ولو بصفة واحدة من هذه الصفات فلا يصلح أن يكون إلها يعبده الناس مع الله ! - والعياذ بالله - **وإنما الذي يستحق أن يُعبد وحده هو الخالق لا المخلوق ، والرازق لا المرزوق ، والناصر لا المنصور** ، وهذه هي طريقة القران كله في مُحاجّة المشركين : وهي الاستدلال من توحيد الربوبية علي توحيد العبادة ؛ فتوحيد الربوبية هو أوسع أودية أدلة توحيد العبادة ؛ وذلك لأنه دليل سمعي وارد بكثرة في القرآن والسنة ، ودليل عقلي وحسي أيضا ، بل قال صلي الله عليه وسلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا سويا علي أن ينفعوك أو يضروك بشيءٍ أقلِّ شيء فلن يتجاوزوا ما قدره الله لك ، فقال - عليه الصلاة والسلام - فيما صح : ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك

بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) انتهي

و في التفسير الميسر لهذه الآية :

((أيُشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله مخلوقاته، وهي لا تقدر على خَلْق شيء، بل هي مخلوقة؟ ، ولا تستطيع أن تنصر عابديها أو تدفع عن نفسها سوءًا، فإذا كانت لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عمن يعبدها، ولا عن نفسها، فكيف تُتَّخذ مع الله آلهة؟ إنْ هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السَّفَه.

وإن تدعوا -أيها المشركون- هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى، لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تَهدِي ولا تُهد.

إن الذين تعبدون من غير الله -أيها المشركون- هم مملوكون لربهم كما أنكم مملوكون لربكم، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا فادعوهم فليستجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحصَّلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون مفترون على الله أعظم الفرية .

ألهذه الآلهة والأصنام أرجل يسعَوْن بها معكم في حوائجكم؟ أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًا ومكروهًا؟ أم لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا مما يغيب عنكم فلا ترونه؟ أم لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟ فإذا كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات، فما وجه عبادتكم إياها، وهي خالية من هذه الأشياء التي بها يتوصل إلى جلب النفع أو دفع الضر؟ قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا آلهتكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة، ثم اجتمعوا على إيقاع السوء والمكروه بي، فلا تؤخروني وعجِّلوا بذلك، فإني لا أبالي بآلهتكم؛ لاعتمادي على حفظ الله وحده .

إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري، هو الذي نزَّل عليَّ القرآن بالحق، وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم

.وإن تدعوا -أيها المشركون- آلهتكم إلى الاستقامة والسداد لا يسمعوا دعاءكم، وترى -أيها الرسول- آلهة هؤلاء المشركين مِن عبدة الأوثان يقابلونك كالناظر إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم لا أبصار لهم ولا بصائر)**انتهي من التفسير الميسر.**

وكذلك قال تعالي في سورة يونس (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال الطبري في تفسيرها :

((يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم) :قل (، يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الأوثانَ والأصنامَ ، (من يرزقكم من السماء) ، الغيثَ والقطر ، ويطلع لكم شمسها ، ويُغْطِش ليلها ، ويخرج ضحاها ، ومن الأرض أقواتَكم وغذاءَكم الذي ينْبته لكم ، وثمار أشجارها ، (أَمَّنْ يملك السمع والأبصار) يقول: أم من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم التي تسمعون بها : أن يزيدَ في قواها ، أو يسلبكموها ، فيجعلكم صمًّا، وأبصاركم التي تبصرون بها : أن يضيئها لكم وينيرها، أو يذهب بنورها ، فيجعلكم عُمْيًا لا تبصرون ، (ومن يخرج الحي من الميت) ، يقول: ومن يخرج الشيء الحي من الميت ، (ويخرج الميت من الحي) ، يقول: ويخرج الشيء الميت من الحيّ.

وقل لهم: من يُدبر أمر السماء والأرض وما فيهن ، وأمركم وأمرَ الخلق ؟ ، (فسيقولون الله) ، يقول جل ثناؤه: فسوف يجيبونك بأن يقولوا : الذي يفعل ذلك كله الله ، (فقل أفلا تتقون)، يقول: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربًّا غيرَ من هذه الصفة صفتُه، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئًا ، ولا يملك لكم ضرًا ولا نفعا، ولا يفعل فعلا؟

فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض ، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر ;، (لله ربُّكم الحق) ، لا شك فيه ، (فماذا بعد الحق إلا الضلال)، يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال ، وهو الجور عن قصد السبيل؟ يقول: فإذا كان الحقُّ هو ذا، فادعاؤكم غيره إلهًا وربًّا، هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه ، فأنى تصرفون ، يقول: فأيّ وجه عن الهدى والحق تُصرفون ، وسواهما تسلكون ، وأنتم مقرُّون بأن الذي تُصْرَفون عنه هو الحق؟)) **انتهي** .

والآيات في ذلك كثيرة من أشهرها آيات سورة النمل التي مطلعها (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .....) .

وستعلم – وفقني الله وإياك - من أدلة الباب أن شرك الأولين هو بعينه شرك الآخرين من المعاصرين ، وهي فتنة كل عصر من لدن نوح عليه السلام إلي خاتم الرسل محمد - صلي الله عليه وسلم - ، وقد سبق كيف كان شرك قوم نوح - عليه السلام - وأنه كان في أموات الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قال عنها ابن عباس كما في صحيح البخاري ((أسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ: أنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتي كَانُوا يَجْلِسُونَ أنْصَابًا، وسَمُّوهَا بأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حتَّى إذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ - أي تغير ونسي وبدله الناس - عُبِدَتْ)) .

وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علي التوحيد كما صح عن ابن عباس أيضا، فلما حصلت هذه المصيبة أرسل الله نوحا إلي قومه أن يعبدوا الله وحده كما في ايات كثيرة في القران في قصة نوح عليه السلام ، وقد خرج من ذريته الناجين معه في السفينة رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام منهم إبراهيم عليه السلام الذي شهد الله له بكمال التوحيد ونفي عنه بنفسه سبحانه الشرك ، ثم خرج من نسله إسماعيل - عليه السلام - وهو ابنه الأكبر ،

وإسحاق - عليه السلام- الذي جاء بعده ، وكان رسولنا وسيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام من ذرية إسماعيل ، وكانت بنو إسرائيل من نسل يعقوب بن إسحاق عليهم وعلي نبينا الصلاة والسلام ، أما إسماعيل وولده فلم يظهر فيهم الشرك حتي أحدثه عمرو بن لحي الخزاعي - قاتله الله - الذي هو أول من سيب السوائب وبدل دين إبراهيم، قال فيه رسولنا عليه الصلاة والسلام كما عند البخاري في الصحيح (عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ، قالَ: البَحِيرَةُ: الَّتي يُمْنَعُ دَرُّها لِلطَّواغِيتِ، فلا يَحْلُبُها أحَدٌ مِنَ النَّاسِ، والسَّائِبَةُ: كانُوا يُسَيِّبُونَها لِآلِهَتِهِمْ، لا يُحْمَلُ عليها شَيءٌ.

قالَ: وقالَ أبو هُرَيْرَةَ: قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ عامِرٍ الخُزاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ - أي أمعاءه - في النَّارِ، كانَ أوَّلَ مَن سَيَّبَ السَّوائِبَ - وبحر البحيرة وحمي الحامي - والوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ البِكْرُ، تُبَكِّرُ في أوَّلِ نِتاجِ الإبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بأُنْثَى، وكانُوا يُسَيِّبُونَها لِطَواغِيتِهِمْ، إنْ وصَلَتْ إحْداهُما بالأُخْرَى ليسَ بيْنَهُما ذَكَرٌ. والحامِ: فَحْلُ الإبِلِ يَضْرِبُ الضِّرابَ المَعْدُودَ، فإذا قَضَى ضِرابَهُ ودَعُوهُ لِلطَّواغِيتِ، وأَعْفَوْهُ مِنَ الحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عليه شَيءٌ، وسَمَّوْهُ الحامِيَ) انتهي .

فأرسل الله رسولنا محمدا عليه الصلاة والسلام يدعو بدعوة من قبله من الرسل أن اعبدوا الله وحده وتبرؤوا من المشركين ، وأما بنو يعقوب واسمه إسرائيل عليه السلام – فإذا أردت أن تدعو علي اليهود لا تقل اللهم عليك بإسرائيل بل ادع علي اليهود لأن إسرائيل نبي كريم - فتوالت عليهم الرسل كلما أرسل الله إليهم رسلا قتلوا فريقا منهم ، وكفروا وكذبوا بفريق ، فقاتل الله اليهود ومن عاونهم ، بل فاق شرك المعاصرين شرك الأولين بمراحل ؛ وذلك من وجوه ، منها :

أ. أن الأولين كانوا يشركون بالله في الرخاء ويلجأون إليه وحده في الشدة ، وأما المشركون الآخرون المعاصرون فشركهم دائم في الرخاء والشدة ، وفي ذلك ايات كثيرة في القران ، منها قوله تعالي ((هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ

وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)) وقوله سبحانه ((فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)) وقوله - جل شأنه - ((قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)) ، وقوله سبحانه ((فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)).

قال البغوي في تفسيره :

((قال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا ربنا يا ربنا)) ، وفي سنن الترمذي عن عمران بن حصين قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: يا حصين؛ كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبي: سبعة، ستة في الأرض، وواحداً في السماء، قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: يا حصين؛ أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك، قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي .

ب. أن المشركين الأولين كانوا يشركون مع الله الأموات والصالحين أو الأنبياء أو الملائكة أو الجمادات أو الكواكب كالشمس والقمر أو القبور وكل ذلك كان بتزيين الجن والشياطين ، وأما المشركون المعاصرون فيشركون بفساق وكافرين وحيوانات !

ج. أن الأولين كانوا يوحدون الله في كثير من أفراد ربوبيته كالخلق والرزق والتدبير ، وأما المشركون المعاصرون فشركهم حاصل في الربوبية والألوهية حتي ادعي الجفري - قاتله الله - أن الولي يستطيع خلق الجنين في بطن أمه ! سبحان الله وتعالي عما يشركون.

د. أن الأولين كانوا يجعلون بعض العبادات للأموات وغيرهم معتقدين أنها قربة إلي الله سبحانه وأن أولئك الصالحين شفعاؤهم عند الله ، وأما الآن فيتعبدون لذات الأموات بالعبادات .

ه. أن من المتأخرين ملاحدة ومن يعتقد أن الله في كل مكان وهو اعتقاد أهل وحدة الوجود الكافرين ، ولم يبلغ شرك الأولين ذلك الحد - **!** ،

قال في التيسير : ((المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنهم لا ينفعون ولا يضرون، وسواء في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعي من دون الله فهذه حاله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

ويكفيك في ذلك قوله تعالى لأكرم الخلق: {قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ} ، وقال: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

وقال: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً} ومن المعلوم أنهم كانوا قد عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن الملائكة أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} إذا تبين ذلك فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم لها أن قوله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عبادًا لا تخلق شيئًا وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر، لأنفسهم أو لمن عبدهم وهم مع ذلك مخلوقون مُحدَثون ولهم خالق خلقهم، وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام، فالمراد به ما ذكرناه.

وقوله: {وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُم يَنْصُرُونَ} أي: ويشركون به، ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضر، ومن هذه

حاله فهو في غاية العجز، فكيف يكون إلهًا معبودًا؟! وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئًا ولا يستطيعون لمن عبدهم نصرًا، ولا ينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله))**انتهي**

٢ -وقوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ }

قال في التيسير :

((حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها - فالآية عامة في كل من يدعوه الناس مع الله سبحانه سواء كان ملكا مقربا أو نبيا نرسلا أو شجرا أو حجرا أو قبرا أو وليا صالحا أو كوكبا سمسا أو قمرا أو ميتا أو حيوانا أو شيطانا - يبين حالهم بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، **فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعوًا، فكيف إذا عدمت كلها**، فنفى عنهم الملك بقوله: {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة: القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر، أي: ولا {يَمْلِكُونَ} من السموات ، والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير - ولو شيئا يسيرا من القطمير ولهذا أكده بمن الجارة الداخلة علي المنكرات في صيغة النفي وهي من دلائل العموم أي لا يملكون أي شيء فاعبدوا ووحدوا المالك الحق سبحانه وتعالي - لا كل القطمير فمن باب أولي ما هو أكبر من ذلك كما قال: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ} ، وقال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ... } فمن كان هذا حاله فكيف يدعى من دون الله؟ ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: {إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ} يعني أن الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم؛ لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، فلعل المشرك يقول: هذا في الأصنام، أما

الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون، فنفى سبحانه ذلك بقوله: {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} ، أي: لا يقدرون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع مَن يدعى مِن دونه.

ومن المعلوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم لا استقلالًا ولا وساطة بالشفاعة.

وقوله: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} كقوله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك ، وأن المدعوين يكفرون به يوم القيامة، ويتبرءون منهم كقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} فهل على كلام رب العزة استدراك؟ ولهذا قال: {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة)) **انتهى من التيسير بتصرف.**

3 -وفي الصحيح عن أنس، قال: "شُج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد - قلت والشج في اللغة أصله في الرأس ثم نقل لغيره من الأعضاء كالوجه وورد في رواية أنه شج في جبهته - ، وكسرت رباعيته - بفتح الراء أوضمها مع تخفيف الياء وهي السن التي تلي الثنايا وقبل الناب فكل آدمي له أربع رباعيات ثنتان فوق واثنتان تحت واحدة في كل جانب - ، فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ - وفي رواية في الصحيح " وهو يدعوهم إلي الله - فنَزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} " وفيه: "عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: اللهم العن فلانا وفلانا، بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} " الآية .وفي رواية: "يدعو على صفوان بن أمية، وسهل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنَزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}"

- الشاهد من الحديث علي مقصود الباب أن النبي صلي الله عليه وسلم و هو أشرف الخلق ، وأفضل الرسل ، وخليل الله سبحانه ، وسيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وصاحب المقام المحمود ، وأول من يدخل الجنة وأول شافع ، وأول مشفع ، كما ثبت له ذلك كله كما في الأحاديث الصحيحة ومع ذلك لا يعلم الغيب ، ولم يستطع نصر نفسه ولا نصر أصحابه بل جرح وسأال الدم من وجنته الشريفة في هذا الموقف العصيب عليه الصلاة والسلام ، فإذا كان هذا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم فكيف بمن هو دونه - وكل من سواه من المخلوقين دونه - وقد أمره الله سبحانه في آيات كثيرة أن يخبر الناس بذلك إنسهم وجنهم فقال سبحانه ((قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها)

قال ابن سعدي في تفسيره :

: ((﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، مبينا حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه ، ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شي ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله [شيئا] إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى .﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأ ومنتصرا ، ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا تقوم الحجة على الناس .﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة .وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.)) . **انتهي** .

فإذا علم المشرك عابد غير الله هذه الحال من النبي صلي الله عليه وسلم فإنه سينزجر يقينا عن دعاء غير الله وعبادة غيره سبحانه - . بل لما دعا الرسول - صلي الله عليه وسلم - وقنت شهرا كاملا ومعه سادات الأولياء من الصحابة الكرام رضي الله عنهم يؤمنون علي دعائه باللعن علي بعض المنافقين لشدة أذاهم علي المسلمين لم يجب الله دعائه بل أنزل سبحانه قوله " ليس لك من الأمر شيء " فأتوه تائبين مسلمين وحَسُن إسلامُهم وصاروا من الصحابة المجاهدين ، فما استجيب له فيهم بل تاب الله عليهم مع أنهم فعلوا أشياء لم يفعلها أكثر الكفار منها غزوهم الرسول في بلده ، وشجهم له ، وكسر رباعيته ، وقتلهم بني عمهم المؤمنين ، وقتلهم الأنصار ، والتمثيل بقتي المسلمين ، وإعلانهم بشركهم وكفرهم ، ومع هذا كله لم يقدر الرسول أن يدفعهم عن نفسه ولا عن أصحابه ، فأخلصوا لله عباداتكم ولا تعلقوا قلوبكم بمخلوق ؛ فإن النبي صلي الله عليه وسلم لو كان عنده من النفع والضر شيء لكان يفعل بهم ما يستحقونه على هذه الأفعال العظيمة، ولكن الأمر كما قال تعالى: {هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

فبين سبحانه بتلك الآية في سورة آل عمران (ليس لك من الأمر شيء) أن سيد الخلق محتاج إلي الله سبحانه مفتقر إليه لا يستحق أن يعبد ، وأن الأمر كله لله لا يشاركه فيه أحد ، بل هو سبحانه الغني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه مفتقر إليه بذاته ، فالله جل في علاه مستغن عن كل ما سواه بذاته ، مستغن عن كل ظهير ووزير وشفيع كما قال تعالي (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

قال ابن القيم في مدارج السالكين :

(وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعا قطعا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليا أو شفيعا فهو كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت فقال تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات

ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبا متنقلا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان) اهـ

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله)) **انتهي كلامه.**

فأين هذا مما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين بل في الطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب والفقراء أنهم ينفعون من دعاهم، وينصرون من لاذ بحماهم، ويدعونهم برًّا وبحرًا في غيبتهم وحضرتهم ، سبحانه الله وتعالي عما يشركون .

وفي وقوع ما وقع في أحد للنبي صلي الله عليه وسلم حكم كثيرة منها : رفعة الدرجات ، وليتأسي به أمته مِن خلفه ، وليعلموا أن الرسل الكرام يصيبهم من المحن والبلاء والأسقام ما يدل يقينا علي بشريتهم فلا يستحقون من العبادة شيء .

وأيضا لنعلم أنهم من البشر تصيبهم من مِحَن الدنيا والابتلاءات، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر لنتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولانفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، وحتي لا يلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم.

٤ -وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} فقال: يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا."

- ومن القبيح جدا أن تجتهد في إنذار الناس وتدع والديك وأقاربك دون دعوة ، مع أن دعوتهم مكسب عظيم ؛ لأنهم سيستجيبون في الغالب أكثر من غيرهم ، وسينصرونك ويؤيدونك علي ما تقول بخلاف الأجانب فإنه في كثير من الأحيان قد تجد منهم عداء وتخذيلا وردا لما تقول من هذه الدعوة المباركة الدعوة إلي توحيد الله سبحانه ، هذا غير ما في قلوب كثير منهم من الكبر والحسد ما لا يكون في الأقربين ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم والباب مفتوح أمامك وميسر جدا ؛ فابدأ بهم هم واجتهد معهم ولك عظيم الأجر والثواب : دعوة وصلة ، والحمد لله .

قال في التيسير : ((والأقربين: أي الأقرب فالأقرب منهم .

1 - لأنهم أحق الناس بِبِرِّك وإحسانك الديني والدنيوي، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن قال له: من أبر؟ قال: "أمك قال: ثم من، قال: ثم أباك، ثم أختك وأخاك ."

2 -ولأنه إذا قام عليهم في أمر الله كان أدعى لغيرهم إلى الانقياد، والطاعة له

3 -ولئلا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من الرأفة والمحاباة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، ولذلك أُمِرَ بإنذارهم خاصة، وقد أمره الله أيضًا بالنذارة العامة كما قال: {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً} وقال: {لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} ولا تنافي بينهما، لأن النذارة الخاصة فرد من أفراد العامة .

و قوله: **"اشتروا أنفسكم". أي: بتوحيد الله، وإخلاص العباده له وعدم الإشراك به، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه زجر، فإن جميع ذلك ثمن النجاة، والخلاص من عذاب الله، لا الاعتماد على الأنساب، وترك الأسباب،** فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب: ودفع بقوله: " {لا أغني عنكم من الله شيئا} " ما عساه أن يتوهم بعضم أنه يغني عنهم من الله شيئا بشفاعته، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرا، ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه، كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} فكيف يملك لغيره نفعًا أو ضرًا، أو يدفع عنه عذاب الله؟ وأما شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض العصاة، فهو أمر من الله ابتداء فضلا عليه وعليهم، لا أنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء .وفي صحيح البخاري بعد قوله: "لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا" .فلعل المصنف اختصرها .

وقوله لفاطمة رضي الله عنها " سليني من مالي ما شئت " أي هذا ما يقدر عليه وأما النجاة فإنه لا ينجيهم من عذاب الله، ولا يدخلهم الجنة، ولا يقربهم إلى الله، وإنما الذي يقرب إلى الله، ويدخل الجنة، وينجي من النار برحمة الله، هو طاعة الله. وأما ما يقدر عليه صلى الله

عليه وسلم من أمور الدنيا فلا يبخل بها عنهم، كما قال: "سلوني من مالي ما شئتم" وكما قال: "ألا إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها" أي سأَصِلُكم في الدنيا بالدعوة الي التوحيد فهذا هو سببل النجاة الوحيد ، وأما في الآخرة فلا أنساب وإنما النجاة لمن وحد الله وأطاع رسوله صلي الله عليه وسلم.

فإذا صرح وهو سيد المرسلين لأقاربه المؤمنين وغيرهم، خصوصا سيدة نساء العالمين وعمه وعمته، وآمَنَ الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر إلى ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء والصالحين، أنهم ينفعون ويضرون ويغنون من عذاب الله حتى يقول صاحب "البردة البوصيري"(فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم.)) تبين له التوحيد، وعرف غربة الدين: فأين هذا من قول صاحب "البردة" والبرعي وأضرابهما من المادحين له صلى الله عليه وسلم بما هو يتبرأ منه ليلا ونهارًا، ويبين اختصاصه، بالخالق تعالى وتقدس، كما قال تعالى: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} تالله لقد تاهت عقول تركت كلام ربها، وكلام نبيها لوساوس صدرها، وما ألقاه الشيطان في نفوسها.

ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله، فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، ومحبة الصالحين وتعظيمهم، ولعمر الله إن تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة، هو التعظيم لهم والمحبة، وهو الواجب المتعين، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في سورة بغض النبي صلى الله عليه وسلم وبغض الصالحين، والتنقص بهم، وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه وتعالى، وبخسوه حقه، وتنقصوا النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين بذلك. أما تنقّصهم للخالق تعالى، فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة على النفع والضر، وأما بخسهم حقه تعالى،

فلأن العبادة بجميع أنواعها حق لله تعالى، فإذا جعلوا شيئًا منها لغيره، فقد بخسوه حقه. وأما تنقصهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللصالحين، فلأنهم ظنوا أنهم راضون منهم بذلك أو أمروهم به وحاشا لله أن يرضوا بذلك أو يأمروا به، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} ،وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: جِدّه صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب به إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن، قاله المصنف .

وفيه دليل على الاجتهاد في الأعمال وترك البطالة والاعتماد على مجرد الانتساب إلى الأشخاص كما يفعله أهل الطيش والحمق ممن ينتسب إلى نبي أو صالح ونحو ذلك، لأنه صلى الله عليه وسلم إذا خاطب بنته وعمه وعمته وقرابته بهذا الخطاب كان تنبيها لذريتهم ونحوهم على ذلك، لأنه إذا كان لا يغني عن هؤلاء شيئًا، كان ذريتهم أولى أن لا يغني عنهم من الله شيئًا، وقد قال تعالى لمن اكتفى بالانتساب إلى الأنبياء عن متابعتهم: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

وفيه أن أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أهل طاعته، ومتابعته في محياه ومماته، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ألا إن آل أبي -يعني فلانًا- ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالحو المؤمنين" رواه مسلم. وروى عبد بن حميد عن الحسن. أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع أهل بيته قبل موته فقال: "ألا إن لي عملي ولكم عملكم، ألا إني لا أغني عنكم من الله شيئا، ألا إن أوليائي منكم المتقون، ألا لا أعرفنكم يوم القيامة تأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ويأتي الناس يحملون الآخرة) **انتهي من التيسير** بتصرف .

إذا علمت ما سبق وأن الغلو في الصالحين هو أصل شرك العالم فاعلم أن محبة الصالحين لها ٣ طرق - :

الطريق الأول :

طريق شرعي وهو ما بينه الشرع من موالاتهم ، ونصرتهم ، والإحسان إليهم ، ومتابعتهم ، والاقتداء بهم .

والطريق الثاني :

طريق بدعي وهو ما زينه الشيطان من البدع بتعظيم الصالحين .

والطريق الثالث :

طريق شركي وهو ما وقع فيه المشركون من الشرك تحت دعوي محبة الصالحين واتخاذهم أندادا من دون الله والعياذ بالله .

واعلم أن الصالحين لهم مقامان مع التوحيد:

فأما المقام الأول :

فهو مقام الرعاية في دعوة الخلق إليه ، وهو المذكور في قوله تعالي عن عيسي عليه السلام (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) .

وأما المقام الثاني :

فمقام وقاية بحماية التوحيد وسد كل الذرائع المفضية إليه ، وهو في قوله تعالي (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) .

وتلبيس الشيطان علي الخلق في أمر الصالحين هو من جهتين :

أما الأولي فتزيينه الشرك لهم في قالب محبة الصالحين

واما الثانية ففي تصويره للخلق أن إفراد الله وعدم سؤالهم تنقصا لهم .

ونحن الموحدين نرد عليهم بأن نقلب عليهم الدعوي : وذلك من جهتين

: الأولي :

أن نبين أن تنقص الصالحين ومنهم النبي كائن بما يفعلون من الشرك ؛ إذ قد يظن أنهم راضون بذلك آمرون به وهم برآء منه .

والثانية :

أن ما يزعمه هؤلاء المشركون من محبة الصالحين هو في الحقيقة تنقص لله رب العالمين ؛ لأن الله حرم الشرك ونهي عنه أشد النهي ؛ فهم مخالفون لأمر الله ، مفترون علي ما لم يأمر به ولم يرضه لخلقه أبدا بل القران كله في التحذير من دعاء غيره سبحانه وتخليد من فعل ذلك في نار جهنم أبد الآباد ، فنعوذ بالله من انتكاس الفطر وانقلاب الحقائق.

16) باب قول الله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ، [سبأ، من الآية: ٢٣] .

- مناسبة الباب:

بيان أعظم براهين التوحيد وهي : قدرة الخالق وعجز المخلوق والإقرار بربوبية الله - سبحانه - علي خلقه كما تقدم في الباب السابق ؛ فإن الملائكة رغم كونهم أقوي مخلوقات الله فإنهم يغشي عليهم من خوف الله وخشيته والرهبة منه ، فعلمنا بذلك أنها لا تصلح أن تكون آلهة أبدا ؛ فإن الإله الحق هو القوي لا الضعيف ، القدير لا العاجز ، القهار لا المقهور .

- والفرق بين هذا الباب وبين الباب الذي قبله هو من وجهين ، بعد أن ذكرنا أنواع المعبودات مع الله فيما سبق:

الوجه الأول :

أن الباب السابق كان في بيان افتقار النبي صلي الله عليه وسلم لله رب العالمين متحصنا به مخبتا له ، خاضعا لعظمته فقد كان صلي الله عليه وسلم أخشي الخلق وأتقاهم لله سبحانه ، فعلمنا أنه عبد لا يعبد ، وتقدم أيضا بيان عجز أصنام المشركين وصالحيهم من الأموات وأنهم لا يسمعون ولو سمعوا لما استجابوا، ويوم القيامة سيتبرؤون ممن عبدهم ، وأما هذا الباب ففي بيان عجز المخلوقات السماوية وهي الملائكة ؛ فالشرك يدخل علي الخلق إما بتعظيم أحد من أهل الأرض وهو أول شرك أرضيّ كما كان الحال قي قوم نوح - وقد تقدم بيانه - ، وإما بتعظيم المخلوقات السماوية كما كان الحال في شرك قوم إبراهيم بالنجوم والأفلاك.

الوجه الثاني:

أن المضروب عجزه مثلا في الباب السابق هو مخلوق معظم عند المسلمين وهو النبي ، ومعظم عند المشركين وهي الأوثان من القبور والأصنام ، والمضروب عجزه مثلا في هذا الباب فهو مخلوق معظم كذلك وهم الملائكة .

- **وفي التيسير** ((أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم مَن عبد مِن دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟! وإذا كانوا لا يُدعَون مع الله تعالى لا استقلالا، ولا وساطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يُدعى، ولا يُعبد، ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يُدعَون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم.

وقد قال تعالى فيهم: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}

فهذه حالهم وصفاتهم، وليس لهم من الربوبية والإلهية شيء، بل ذلك لله وحده لا شريك له، وكذا قال في هذه الآية: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} ، أي: زال الفزع عنها " قاله ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي والحسن وغيرهم. والضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر التي للغيبة في قوله: (لا يملكون) ، (وفي أموالهم) ، (وما له منهم) ، و "حتى" تدل على الغاية، وليس في الكلام ما يدل على أنه غاية له، فقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون أبدًا، يعني: منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم، والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار. وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} ، إنما هي في الملائكة، إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمر الله به، سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة. قال: وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى، ومَنْ لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها .

١) في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله - قلت بفتح الخاء والضاد أو بضم الخاء مع سكون الضاد أي خضوعا وهو التطامن من الشيء والمراد انقيادا وطاعة لله سبحانه وخفضا للنفس إليه جل وعلا - ، كأنه سلسلة على صفوان - قلت والصفوان الحجر الأملس ومفرده صَفاة - ينفُذهم ذلك - أي يتخللهم ويمضي فيهم - {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} فيسمعها مسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض وهو مختلس السمع المتطلب لسمع ما يلقي من الكلام خفية - وصفه سفيان بكفه فحرفها - بتشديد الراء أي أمالها - وبدّد بين أصابعه - أي فرّق بينها - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة- بفتح الكاف وسكون الذال وهو اسم مرة من الفعل كذب الثلاثي والمراد أن الشيطان يكذب مرة تلو أخري حتي يبلغ مائة كذبة - فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء".

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله ؛ فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا - أي أغشي عليهم - ، وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على

الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله)

- وجه الشاهد من الحديث علي مقصود الباب هو بيان حال الملائكة فرغم أنهم أقوي ما يُعبد من دون الله فإنهم يغشي عليهم خوفا من الله ومن كان هذا حالهم لا يصلحون أن يعبدوا مع الله أبدا سبحانه هو الله الواحد القهار .

- وفي الحديث دلالة ظاهرة علي أن للملائكة قلوب .

- وفيه أيضا تصريح بأن كلام الله غير مخلوق ؛ وذلك لأن الملائكة الذين سألوا جبريل لم يقولوا ماذا خلق ربنا بل قالوا ماذا قال ربنا ،ولو كان كلامه مخلوقا لسألوه ماذا خلق ربنا.

- وفي الحديث أيضا أن صفة الكلام لله سبحانه صفة ذاتية معنوية باعتبار أصلها أي أنه لم يزل ولا يزال متصفا بها ، وصفة فعلية متعلقة بالمشيئة باعتبار آحادها ، أي أنه كلامه سبحانه حادث أي يتكلم سبحانه بما شاء ومتي شاء وكيفما شاء ، والتعبير بأنه حادث أولي من التعبير بأنه متجدد لأن الحدوث هو الوارد في كلام ربي في قوله تعالي (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) ، وكذلك التعبير بأولية صفات ربنا سبحانه أولي من التعبير بأقدميته ، وذلك موافقة لقول رسول الله صلي الله عليه وسلم أن ربنا أول ليس قبله شيء وهو الآخر ليس بعده شيء ، والقدم في لسان العرب ليس كذلك .

- والحديث أيضا فيه إثبات علو الله سبحانه علي خلقه وهو نوعان : علو صفات ، وكلو صفات الله موصوفة بالعلو لقول الله سبحانه وتعالي (وله المثل الأعلي) قال ابن عباس (الوصف الأعلي) ، والنوع علو الذات فإننا - أهل السنة والجماعة - معتقدون أن الله فوق عرشه فوق السماء السابعة بائن من خلقه ليس في خلقه شيء منه ولا فيه شيء من خلقه تعالي ربنا وتقدس ، وقد بينت ذلك مفصلا في كتابي اللآلئ المنتظمة فراجعه غير مأمور .

- وهذه الرعدة من السماء توجب علي العبد أن يشتد خوفه من الله سبحانه وتعالي ، والخوف الكامل من الله تعالي هو خوف الهيبة والإجلال لا مجرد خوف حصول الضرر ونزول العذاب، ؛ فإن الخوف علي نوعين : خوف إجلال وإعظام ، وخوف ضرر وحذر ، والأول أكمل من الثاني ، فالأكمل أن يكون داعي الخوف فينا هو إعظام الله وإجلاله فنجله سبحانه ونعظمه أن نخالف أمره ، فهذا هو الخوف الكامل والعبودية التامة أن يكون خوفنا من ربنا تعظيما وإجلالا ومهابة له سبحانه .

- واعلم أن عبودية الخلق لله تبارك وتعالي نوعان:

الأولي :

عبودية عامة : وهي عبودية البر والفاجر ، والمؤمن والكافر، فلا يفعلون شيئا إلا بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية .

والثانية :

عبودية خاصة : وهي تختص بأهل الإيمان ، وحقيقتها عبودية الإقرار بألوهيته سبحانه.

والفرق بينهما أن الأولي عبودية غلبة وقهر ، والثانية عبودية رغبة واختيار.

وتختص العبادة بالعبودية الشرعية الدينية لا الكونية القدرية ؛ فالعبودية أعم من العبادة ؛ لأن العبادة تختص بالشرع والدين ، وأما العبودية فمنها ما هو شرع ودين ومنها ما هو كوني قدري بدعي خلاف الشرعي والدين .

- وقوله (يكذب معها مائة كذبة ،، ويصدق بكلمة سمعها) فيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!! ولتعلم أن كثيرا من أهل الباطل لا يوردون باطلهم علي الناس بصراحة لكن يشبهات وتزيين فلا تأخذ دينك إلا ممن عرف بالتوحيد والسنة الصحيحة ، ثم إذا كان الأمر كذلك فكن متبعا لا مقلدا ولا تأخذ قولا إلا بدليله .

- وقوله عن صوت الله سبحانه (كأنه سلسلة علي صفوان) هو تشبيه للسماع بالسماع لا المسموع بالمسموع ؛ فإن كلام ربنا صفة من صفاته يثبتها له الموحدون ولا يشبهونها ولا يمثلونها بخلقه ولا يكيفونها ولا يعطلونها ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإنما المراد أن أثر سماع الملائكة كلام ربهم هو الخوف والفزع كالخوف والفزع الناشئ من سماع السلسلة علي الصخرة الملساء ، وليس المراد تشبيه كلامه بالسلسة ! عياذا بالله فإنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

قال نعيم بن حماد : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال إسحاق بن راهويه:

من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم ، وقال : علامة جهم وأصحابه ، دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب : أنهم مشبهة ، بل هم المعطلة.

- وقد كان مسترقو السمع من الشياطين قبل البعثة ربما تصيبهم الشهب ، فاشتد الأمر بعد البعثة ، واعلم أن النجوم والكواكب اسم في خطاب الشرع لما عدا الشمس والقمر ، وسميت كواكب لكبر حجمها واجتماعها ، وسميت النجوم كذلك لبروزها وظهورها ، وبهذا المعني تفسر النجوم والكواكب في القران ، وأما تفسير علماء الهيئة بأن النجوم جرم سماوي مضيء وأن الكوكب جرم سماوي معتم فهذا الكلام لا يفسر به القران ؛ فإن القران لا يفسر بمصطلح حادث ، ولا يقال في لغة القران أن الأرض كوكب من الكواكب بل هي جرم مفاوت وهو أعظمها وأكبرها .

17) باب الشفاعة

بيان المثبت والمنفي منها ، و حقيقة ما أثبت ، والمقصود بها ، وبيان الفرق بين الشفاعة عند الله وبين الشفاعة عند غيره ، و أقسام الناس في الشفاعة وانقسامهم إلي ثلاث فرق أهل السنة الوسط ، وغلاة وهم المشركون ، ومفرطون وهم الخوارج نفاتها ، وأنواع الشفاعة المثبتة ، وأنواع الشفعاء ، وبيان من هم المستحقون لها وهم الموحدون خاصة ، وبيان شروط الشفاعة ، وموانعها ، وأول الشفعاء وأول المُشفَّعين وأول المشفوع لهم ، وتحقيق مسألة الدعاء بالشفاعة وبيان ما هو شرك منه وما هو جائز ، وغير ذلك من المسائل الآتي تحقيقها وتحرير الكلام فيها .

- **مناسبة الباب لما قبله :**

أولا : أن قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا أغني عنكم من الله شيئا كما في الحديث الذي تقدم في الأبواب السابقة لا ينافي أنه سيشفع يوم القيامة بإذن الله سبحانه ، وللموحدين دون غيرهم ، فمقصود هذا الباب الرد علي نفاة الشفاعة.

ثانيا : أن أكثر من يقع في الشرك الأكبر في هذه الأمة إنما يقعون فيه من جهة الشفاعة وتعلقهم بأذيالها مع جهلهم بشروطها الآتي بيانها ، كما قال تعالي (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

وقال أيضا سبحانه (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

وقال عز وجل (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

قال في التيسير :

((أراد المصنف في هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك وأن الشفاعة التي يظنها مَنْ دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى، وإنما الله هو الذي يأذن للشافع ابتداء، لا يشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله - قلت وهذا فرق جوهري بين شفاعة المخلوقين لبعضهم في الدنيا وبين الشفاعة عند رب الأرض والسماوات وسيأتيك الان أوجه أخري في التفرقة بينهما ، و إنما وقع من وقع من الناس في الشرك بتشبيههم ربهم بخلقه فظنوا أن الشفاعة عند الله كشفاعة المخلوقين لبعضهم في الدنيا - ، فإن قلت: إذا كان من اتخذ شفيعا عند الله، إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه إلا بالشفعاء، فلم كان هذا القدر شركًا؟**!**

قيل: قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى، فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصة بتعظيمه، ولهذا قيل في المثل المشهور: يضر الصديق الجاهل ما لا يضر العدو العاقل؛ فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية - قلت لأنه توجه بالدعاء والطلب لغير الله والدعاء هو العبادة كما أهبرنا الرسول صلي الله عليه وسلم وصرف العبادة لغير الله هو الشرك الأكبر المخرج من الملة - ، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً} فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه ندًا، أو شفيعًا يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له، ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلا وضلالاً، فيقولون وهم في النار: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ومعلوم، أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتكم خلقت السماوات والأرض وإنها تحيي وتميت، وإنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام، وإنما كان ذلك هضمًا لحق الربوبية، وتنقصًا لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، لأن المتخذ للشفعاء والأنداد، إما:

- أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى مَنْ يدبّر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.
- وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع.
- وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يُعلِمَه الشفيع.
- أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم.
- أو لا يكفي وحده.
- أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده كما يشفع عند المخلوق.
- أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا ، وهذا أصل شرك الخلق.
- أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك.
- أو يظن أن للشفيع عليه حقًا، فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا تمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم.

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزّه نفسه عنه فقال: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط، فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركًا.

قيل: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك، لازم له كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى - قلت لأنه توجه بالدعاء والطلب لغير الله ممن لا يملكه الشفاعة ولم يؤذن لهم بعد فيها فأي شرك أعظم من هذا ! - ، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في الخارج، وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة، فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى.)) **انتهي من التيسير بتصرف وتعليق في جمل معترضة .**

قال ابن عثيمين في القول المفيد :

((ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد; لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله - سبحانه وتعالى - فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك. وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له; لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة; فلا يحتاج إلى شفعاء. ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك; فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك; فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء; إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم; فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم; فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله عزوجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله - سبحانه - في شيء مما شفع فيه; فهذا ممتنع ولكن يقصد بها أمران، هما:

١ .إكرام الشافع.

٢. نفع المشفوع له) **انتهي بنصه .**

- والشفاعة في اللغة بمعني الزوج ، وهي جمع شيئين بضم أحدهما للآخر ؛ فيقال شفع فلان لفلان إذا جيء إلي بعض الناس لطلب شيء لآخر أي لتحقيق مطلوبه من جلب نفع أو دفع ضر ، وتسمي عند الناس الآن بالواسطة ، بحيث يتوسط أحد الناس لآخر فيضم طلبه إلي طلبه عند صاحب سلطة ليحقق مطلوبهم .

- فهذا معناها في اللغة ، وأما معني الشفاعة في الشرع فالمراد بها الشفاعة عند الله ، وحقيقتها سؤال الشافع لله حصول نفع للمشفوع له ، و هذا النفع المطلوب للمشفوع له نوعان : جلب نفع أو دفع ضر ، وهذه الشفاعة لها أربعة أركان :

١ -المشفوع عنده، وهو الله جل في علاه.

٢ - الشافع ، وهو الباذل للشفاعة.

٣ - المشفوع له، وهو من يسأل له الشفاعة.

٤ - المشفوع به ، وهو صيغة الشفاعة ، وهي ما يسأل الله به من الدعاء.

والمقصود بالشفاعة أمران :

الأول:

إكرام الشافع وهو الرسول صلي الله عليه وسلم لينال المقام المحمود وهذا فيما يختص به من الشفاعات الآتي بيانها ، وكذلك إكرام لغيره ممن يشفع بشفاعات أخري يشاركون بها النبي صلي الله عليه وسلم كسائر الأنبياء والصالحين والملائكة والأفراط وسيأتي بيان ذلك.

والمقصد الثاني:

نفع المشفوع له بمغفرة الذنوب ، ولا يتم ذلك إلا لمن رضي الله قوله وعمله من الموحدين .

- وأصل الشفاعة ما ثبت عن النبي صلي الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما عند البخاري في صحيحه ((قيلَ يا رَسولَ اللَّهِ مَن أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ ظَنَنْتُ يا أبَا هُرَيْرَةَ أنْ لا يَسْأَلُنِي عن هذا الحَديثِ أحَدٌ أوَّلُ مِنْكَ لِما رَأَيْتُ مِن حِرْصِكَ علَى الحَديثِ أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتي يَومَ القِيَامَةِ، مَن قالَ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِن قَلْبِهِ، أوْ نَفْسِهِ)) .

و عند البخاري أيضا بإسناده لأبي هريرة رضوان الله عليه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال ((لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ ، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه ، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي ، فهي نائلةٌ من مات منهم لا يشركُ باللهِ شيئًا))

فاشترط التوحيد والبراءة من الشرك لنيل الشفاعة ، ألا فاعلم يا عبد الله أن الله اشترط لنيل الشفاعة ثلاثة شروط:

الأول:

في قوله تعالي (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ومن السنة كما عند البخاري قال الرسول صلي الله عليه وسلم إذا أتي الناس إليه ليشفع لهم بتعجيل الحساب من هول الموقف وشدة المقام في المحشر ((فأستأذن علي ربي فإذا رأيته خررت له ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني وأحمده بمحامد يفتحها علي حتي يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع))

فالشرط الأول هو إذن الله للشافع أن يشفع ولن يشفع الشافع ابتداء حتي بديأءن الله له فإذا أذن له لا يبدأ بالشفاعة بل يبدأ بحمد الله والثناء عليه زمنا طويلا حتي يأذن له بالشفاعة والسؤال.

والشرط الثاني والثالث :

في قوله تعالي (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي) ، وقال أيضا سبحانه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضي)

فالشرط الثاني هو رضا الله عن الشافع وعن المشفوع له.

فالنبي صلي الله عليه وسلم لن يشفع إلا لمن رضي الله قوله وعمله وهم الموحدون ، النبي صلي الله عليه وسلم لن يشفع إلا لأناس معلومين عند الله سبحانه فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، أوّل بعلمه سبحانه العليم الخبير.

فالشفاعة ملك لله وحده لا يملكها غيره ، مصداق قوله سبحانه (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون)

قال الطبري في تفسيره:

((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم: أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون ولو كانوا لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا، ولا يعقلون شيئا، قل لهم: إن تكونوا تعبدونها لذلك، وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهة، فإن الشفاعة جميعا له، لا يشفع عنده إلا من أذن له، ورضي له قولا وأنتم متى أخلصتم له العبادة، فدعوتموه، وشفعكم ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ﴾ ، يقول: له سلطان السموات والأرض ومُلكها، وما تعبدون أيها المشركون من دونه له، يقول: فاعبدوا الملك لا المملوك الذي لا يملك شيئا. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو معاقبكم على إشراككم به، إن متم على شرككم.

ومعنى الكلام: لله الشفاعة جميعا، له مُلك السموات والأرض، فاعبدوا المالك الذي له مُلك السموات والأرض، الذي يقدر على نفعكم في الدنيا، وعلى ضركم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون **))** .

- فإن سألت إذن ما فائدة الشفاعة إذا كان النبي صلي الله عليه وسلم لن يشفع إلا بعد إذن الله ، ويشفع في أناس يعلمهم الله ، فالجواب أن فائدتها أمران : إكرام الشافع وهو النبي صلي الله عليه وسلم لينال المقام المحمود ، وكذلك إكرام غيره من الشفعاء ؛ فإن الآيات القرانية منصوص فيها علي أن من يأذنُ الله لهم ليشفعوا مَرضِيّ عنهم كما في قوله تعالي (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) ، والمقصد الثاني : نفع المشفوع له بمغفرة ذنوبه، ولا يتم إلا للموحدين فهم المخصوصون بالشفاعة دون غيرهم من المشركين فلا شفاعة لمشرك هذا صراط مستقيم .

- وبهذا تعلم أن طلب الشفاعة من غير الله من الأموات والصالحين والأنبياء شرك أكبر وردة عن الإسلام لأن سائلها توجه بالعبادة لغير الله ؛ لأن المستشفع طالب ، والطلب دعاء ، والدعاء هو العبادة كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم ؛ وعليه فإذا طلب الشفاعة من غير الله فقد جعل عبادةً لغير الله وهذا هو الشرك الأكبر أن يعبد غيرُ الله سبحانه، غير أنه يلزم منه شرك في الربوبية أيضا لأن المسؤول لا يملكها ولم يؤذن له بعد فيها ، وشرك في الأسماء والصفات كذلك لانه يظن أنهم يسمعونه ويعلمون حاله وهذا من أبطل الباطل ، وفي إبطاله قال تعالي (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فسمي الله دعاء غيره شركا به سبحانه وتعالي ، فالشفاعة هي الدعاء ، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء فإذا قال المشرك : أستشفع بسول الله فكأنه قال : أنه يطلب من رسول الله – صلي الله عليه وسلم – أن يدعو له عند الله ، فمن استشفع فقد طلب الشفاعة ، وكل دليل ورد في الشرع علي إبطال أن يدعي غيرالله سبحانه كما قررنا في باب الاستعاذة والاستغاثة ، فإنه يصلح كذلك ان يكون دليلا علي إبطال الاستشفاع بالموتي الذين غابوا عن دار التكليف ؛ لأن حقيقة الشافع أنه طالب وحقيقة المستشفع أنه طالب أيضا ، فالشافع يدعو المشفوع عنده ، والمستشفع يدعو الشافع ؛ فإذا أتي آت إلي قبر النبي صلي الله عليه وسلم أو قبر الولي فقال : أستشفع بك أو أسألك الشفاعة فمعناه أن طلبها منه وطلب مه أن يدعو له فلهذا كان صرفها أو

التوجه بها لغير الله شركا أكبر في عبادة الدعاء فهي في الحقيقة دعوة جُعلت لغير الله ، وسؤال من هذا الميت ، أعاذنا الله من الشرك كله ورزقنا التوحيد الخالص .

- وأما في المحشر حين يهرع الناس الي الأنبياء نوح ثم إبراهيم ثم موسي ثم عيسي ويعتذرون عنها ويحيلون الي رسولنا صلي الله عليه وسلم قائلا أنا لها ، فيشفعه الله لتعجيل الحساب رأفة بالموحدين فهذا السؤال جائز حينها لأنه حي ، حاضر ، قادر ، يسمع كما قد سبق في باب الاستعاذة والاستغاثة انها أربعة شروط لجواز سؤال الأحياء ، وأما الان فقد مات صلي الله عليه وسلم فكيف يُسأل الان شيئا لا يملكه ، ولم يؤذن له فيه ، وهو لا يعلم سؤالك ولا يسمعك**!**
- وبمعرفة الشرط الثلاثة السابقة ومعرفة ضدها تعلم أن الشفاعة عند الله يوم القيامة علي نوعين:

شفاعة شرعية وإن شئت سمها شفاعة مثبتة لأن القران أثبتها ، وشفاعة شركية وإن شئت سمها شفاعة منفية لأن القران نفاها .

أما الشفاعة الشرعية المثبتة فهي ما كانت بإذن الله أولاً سواء أأذن فعلا كإذنه للنبي- صلي الله عليه وسلم - وغيره من الشفعاء يوم القيمة أن يشفعوا ، أو طُلِب منه سبحانه الإذن دعاءً فتقول اللهم شفع في نبيك يوم القيامة ، والشرط الثاني أن تكون فيمن رضي الله عنهم وهم الموحدون ، والثالث أن يكون الشافع فيها من الموحدين.

وأما الشفاعة المنفية فعلي الضد من ذلك : وهي ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كمن يطلبها من الأموات أو غيرهم وهم لا يملكونها ولم يؤذن لهم بعد فيها ، أو يطلبها من مشرك أو يكون طالب الشفاعة نفسه من المشركين فهذه شفاعة نفاها الله في عدة ايات في القران كقوله تعالي (ولا يشفعون إلا لمن ارتضي) ، وقوله تعالي (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي) وقوله أيضا (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) ، وقوله تعالي (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ، وقوله تعالي (فما لنا من شافعين) ، وكذلك قوله تعالي (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا

بشركائهم كافرين) ، وقوله تعالي (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالي عما يشركون).

- وبهذا تعلم أن من الشرك المبين والكفر الصريح طلب الشفاعة من الموتي فهذا هو دين كفار الجاهلية الذين بعث الله فيهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، كما قال تعالي (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالي عما يشركون) ، ومنشأ ذلك تشبيه هؤلاء المشركين شفاعة الله بشفاعة الملوك وأصحاب الجاه في الدنيا ، ولا تشبهها بحال وإنما هو اشتراك في اللفظ مع اختلاف في الحقيقة .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان في الفرق بين شفاعة الله سبحانه وشفاعة المخلوقين:

((قال تعالى: {أَمِ اتخَذُوا مِنْ دُونِ الله شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ} [الزمر:٤٣-٤٤]

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده؛ فهو الذى يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده، فيأذن لهم لمن يشاء أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة فى الحقيقة إنما هى له، والذى يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهى إرادته من نفسه أن يرحم عبده، وهذا ضد الشفاعة الشركية التى أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهى التى أبطلها الله سبحانه فى كتابه، بقوله تعالى:

{وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شفَاعَةٌ} [البقرة: ١٢٣] وقوله {يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يوْمٌ لا بَيْعٌ فِيه وَلا خُلّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِى وَلا شَفِيعٌ لَعَلّهُمْ يَتّقُونَ} [الأنعام: ٥١] وقال: {اللهُ الّذِى خَلَقَ السَّموَات وَالأَرْضَ بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثم اُسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىّ وَلا شَفِيعٍ} [السجدة: ٤] . فأخبر

سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى:

{مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} [يونس: ٣] . وقال: {مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور.

فالشفاعة التى أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتى أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذى لا يشفع ولا يتقدم بين يدى مالكه حتى يأذن له. ويقول: اشفع فى فلان. ولهذا كان أسعد الناس بشفاعته سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه.

قال تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨] ، وقال: {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِى لَهُ قَوْلاً} [طه: ١٠٩]

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسِرُّ ذلك: أن الله له الأمر كله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شىء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذا محال ممتنع، شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم فى الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولى.

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق، والرب والمربوب، والسيد والعبد، والمالك والمملوك، والغنى والفقير، والذى لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم، وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم فى الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم. فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى، فأما الغنى الذى غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وكل من فى السماوات والأرض عبد له، مقهورون بقهره، مصرفون. بمشيئته. لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة)) **انتهي كلامه .**

- شبهة وَرَدُّها :

وأما حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم لما ألقي قتلي بدر في القليب قالَ: يا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ، هلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسولُهُ حَقًّا؟ فإنِّي قدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا. قالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، كيفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لا أَرْوَاحَ فِيهَا؟**!** قالَ: ما أَنْتُمْ بأَسْمعَ لِما أَقُولُ منهمْ، غيرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شيئًا ، فليس فيه جواز الطلب من الأموات فإنهم لا يسمعون.

وعلي ذلك أدلة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: 80].

قال ابنُ جرير الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:(21/36) :

((هذا مَثَلٌ معناه: فإنك لا تَقدر أن تُفِهم هؤلاء المشركين الذين قد خَتم الله على أسماعهم، فسلَبهم فَهم ما يُتلى عليهم من مواعظ تنزيله، كما لا تقدر أن تُفهم الموتى الذين سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعًا.) انتهي .

ثم روى بإسناد صحيح عن قتادة قال: "هذا مَثَلٌ ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميتُ الدعاء كذلك لا يَسمع الكافر، ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ أي: لو أن أصَمَّ ولَّى مُدبرًا ثم ناديتَه لم يَسمع، كذلك الكافرُ لا يسمع ولا ينتفع بما سمع.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: 13، 14].

الدليل الثالث: حديث قَليب بدر: والحديث أخرجه البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - على قَليب بدرٍ فقال: ((هل وَجدتم ما وَعد ربُّكم حقًّا؟)) ثم قال: ((إنهم الآن يَسمعون ما أقولُ))، فذُكِر لعائشة فقالت: إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنهم الآن يعلمون أنَّ الذي كنتُ أقول لهم هو الحق)) ثم قرأت: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} حتى قرأت الآية."

ووجه الدلالة من الحديث علي أن الأموات لا يسمعون:

أن النبي أقر عمر وغيره – رضي الله عن الصحابة جميعا - علي ذلك ، غير أنه قال أنهم **الآن** يسمعون فهذا مخصوص بهذه الحادثة في هذه اللحظة لأنه قال : الآن .

وقال قتادة رحمه الله: "أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونِقمة وحدةً وندمًا."

وفي رواية عنه - رحمه الله -: "أحياهم الله حتى أسمعهم توبيخًا، وتصغيرًا، ونقمة، وحسرة، وندامة."

وقالت عائشة رضي الله عنها في بيان ذلك أنهم الآن عرفوا أن ما كان يدعوهم إليه النبي هو الحق.

وقيل هذا من النبي صلي الله عليه وسلم من باب الخبر لا الإنشاء فإن النبي صلي الله علي وسلم لم يكن ينتظر منهم جوابا لا شك ، والصحيح من الأقوال هنا أن الحديث علي ظاهره وإنما هو خاص بهذه الحادثة في هذه اللحظة فقط فهي مستثناة من الأصل الذي هو عدم السماع.

الدليل الرابع: ما أخرجه الإمام أحمد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض، يُبلغونني عن أمتي السَّلام)).

فالحديث صَريح في أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يَسمع سلام المُسلِّمين عليه، إذ لو كان يَسمعه بنفسه لما كان بحاجَة إلى مَن يُبلِّغه إليه.

وقد وُجِّهَ هذا السؤال إلى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتوى رقم (9216) وفيه:

س: قرأت في كتاب "الحاوي للفتاوى" للإمام السيوطي أن الميت يسمع كلام الناس، وثناءهم عليه، وقولهم فيه، كذلك يَعرف من يزوره من الأحياء، وإن الموتى يتزاورون، فهل هذا حسن؟ فقد اعتمد على بعض الأحاديث وبعض الآثار، وذلك في (ج2/ 169، 170، 171)؟

ج: الأصل عدم سماع الأموات كلامَ الأحياء إلا ما ورد في النص؛ لقول الله سبحانه يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ [الروم: 52]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: 22].

وبالله التوفيق، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

(اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء) .

ولم يرد النص إلا في حالة قتلي بدر ، وسماع الأموات نعال مشيعي الجنازة بعد الدفن ، وما سوي ذلك فباق علي أصل عدم السماع ، وحتي لو كان الموات يسمعون فإنهم لن يستطيعوا نفعك أو ضرك ولهذا قال تعالي في آية فاطر " ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم "

- فالشفاعة علي ما سبق إما شرعية مثبتة وهي المقترنة بإذن الله ورضاه ، وإما منفية شركية وهي الفاقدة لشرط من شروطها الثلاثة فتخلو من إذن الله للشافع ، أو رضاه عن الشافع كآلهة المشركين التي يدعي فيها المشركون الشفاعة ، أو تخلو من رضاه سبحانه عن المشفوع له وهم المشركون فإنهم لا شافع لهم .

- فعندنا شفاعة ثابتة للشافع وهو النبي - صلي الله عليه وسلم - أو غيره كسائر الانبياء والرسل وكذلك الملائكة والصالحين والأفراط كما سيأتي في أنواع الشفاعة ، والمشفوع لهم هم الموحدون من أهل الكبائر للعفو عنهم أو الموحدون كاملو التوحيد لدخول الجنةاو رفعة درجاتهم كما سياتي بيانه من انواع الشفاعات ، وأما الشفاعة المنفية فإما ان تكون منفية عن الشافع وهم آلهة المشركين ، وإما أن تكون منفية عن المشفوع لهم وهم المشركون أنفسهم .

- والفرق بين الشفاعة عند الله وعند غيره من جهتين:

أحدها:

أن الشافع عند الله لا يفتقر الله إليه بل الله سبحانه مستغن عنه لأن ربنا جل شأنه مستغن عن كل ما سواه بذاته، والشافع وغيره مفتقرون إليه سبحانه بذواتهم.

وأما الشافع عند غيره من الملوك والولاة وأصحاب الجاه فإنه مفتقر - بفتح القاف - إليه أي أن المشفوع عنده يؤثر فيه الشافع لمحبته أو رجاء خيره أو دفع ضره أو لمجاملته ففيه نوع تسلط من الشافع علي المشفوع عنده.

وثانيا :

أن الشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذنه ، وأما الشفاعة عند غير الله فإنها ربما وقعت بدون إذنه فيتقدم لها الشافع دون استئذان .

- * أنواع الشفاعة المثبتة:

وهي تسعة أنواع إجمالا ، تنقسم إلي قسمين :

القسم الأول :

شفاعة الخالق ؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة الطويل :

((فيقول الجبار بقيت شفاعتي فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواما قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل))

ففي هذا النوع من أنواع الشفاعات يشفع الجبار - سبحانه - بنفسه عند نفسه ، وهذا كقول الرسول صلي الله عليه وسلم في الصحيح (أعوذ بك منك) فيستعيذ بالله من الله ، وكذلك القرآن يشفع كما في الحديث (اقرؤوا القران فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه) والقران كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته جل وعز ، وما هو صفته سبحانه فهو منه.

القسم الثاني :

شفاعة المخلوق وهي نوعان : شفاعة خاصة بالنبي صلي الله عليه وسلم ، وشفاعة عامة له ولغيره ، لكن له منها الحظ الأوفر والنصيب الأكمل فإنه صلي الله عليه وسلم قد فاق الخلق في كل فضيلة صلي الله عليه وسلم.

فأما الخاصة به صلي الله عليه وسلم فهي خمسة أنواع:

الأول:

الشفاعة الكبري في الموقف ، وتسمي الشفاعة العظمي ، ودليلها ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال :

((أنا سيِّدُ الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذلك؟ يجمع الله الناس الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد، يُسمِعهم الداعي وينفُذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاكَ اللهُ عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربِّي عز وجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليلُه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضَّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسًا لم أُومَرْ بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى بن مريم، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلَّمْتَ الناس في المهد صبيًّا، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربِّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمدًا فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا، لم

يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسَك، سل تعطه، واشفع تُشفَّع فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك مَنْ لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وحِمْيَر، أو كما بين مكة وبُصْرى)) متفق عليه .

واعلم - وفقني الله وإياك - أن الشفاعة العظمي ليست للجزاء والعفو ومغفرة الذنوب بخلاف أنواع الشفاعات الأخري التي ستأتيك ، وإنما مقصود هذه الشفاعة العظمي تعجيل الحساب والقضاء بين الناس ، لماذا ؟ لينجو الموحدون لا سيما أمة سيد ولد آدم محمد صلي الله عليه وسلم ، وللتخفيف عنهم من شدة الموقف.

ومن الخطأ أن يقال أنها تشمل الكافرين ، سبحان الله !! ؛ فإن الموحدين هم الذين يذهبون للرسل يسألونهم هذه الشفاعة ؛ ولهذا جاء في الحديث كما تري أنهم يسألون الأنبياء والرسل وهذا دليل علي أنهم موحدون مؤمنون بالرسل ، وأما الكفار فهم أذل الناس لا يسألون شفاعة ولا غيرها ، ولهذا قال تعالي (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فلا يتكلمون في هذا الموقف فكيف يقال أن النبي صلي الله عليه وسلم يشفع لهم !

قال ابن كثير في تفسيره ((قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتَكَلَّمُونَ.

﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَوَقَعَ القولُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ. وَعَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ حَالَاتٌ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً، وَعَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً؛ لِيَدُلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ يَوْمَئِذٍ. وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَصْلٍ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾)) انتهي.

نعم ، سيحاسب الكفار لأن هذه شفاعة للقضاء لا للمغفرة ، فليس لهم مزية بإثباتها ، ولا بهم رحمة كما يزعم بعض الناس ، بل هي إذلال لهم وما سيحل بهم بعدها أشد ، فمقصد هذه الشفاعة نجاة الموحدين وإذلال الكافرين.

فمن الغلط أن يقال أن النبي - صلي الله عليه وسلم - يشفع للكافرين هذه الشفاعة ، فهذا باطل نتيجة عدم فهم حقيقة هذه الشفاعة ، وإنما نقول أن النبي صلي الله عليه وسلم يشفع عند ربه ليعجل الحساب حتي يستريح المؤمنون وتنكشف عنهم الغمة في الموقف ، ويذل الكافرون ويبعثون يوم القيامة وحوههم مسودة ، بل ما سيلاقونه بعد الشفاعة العظمي التي هي في الأساس للفصل بين الناس لا للعفو والمغفرة ، ما سيلاقونه بعدها أشد عذابا بكثير مما سيجدونه في الموقف من الكرب ، وكيف لا وهم سيخلدون في نار جهنم عياذا بالله ، ولهذا يقول النبي صلي الله عليه وسلم قبل أن يشفع وبعد أن يسجد لربه " أمتي أمتي " ، وقال أيضا كما في الصحيح (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة " فسيحاسب الموحدون أولا قبل الكافرين ، غير أن ما يلاقيه الموحدون في الموقف من كرب وشدة هو في ذاته شفاعة لهم وسيستريحون بعدها بشفاعة النبي العظمي ثم يحاسب بعدهم الكافرون ، فهذه الشفاعة للحساب والقضاء لا للجزاء.

ولهذا من الغلط عند بعض الناس ممن يتكلم في هذه المسألة الا يثبت للتوحيد ولا للموحدين فضلا في استحقاق هذه الشفاعة العظمي علي غيرهم وان هذه الشفاعة لهم خاصة ليكشف عنهم الكرب ويعجل لهم بالحساب ؛ فإن التوحيد فارق بين الموحدين وغيرهم في كل شيء .

وفي ذلك قال ابن خزيمة في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل:

((بَابُ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَهِيَ الشَّفَاعَةُ الْأُولَى الَّتِي يَشْفَعُ بِهَا لِأُمَّتِهِ، لِيُخَلِّصَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْمَوْقِفِ الَّذِي قَدْ جُمِعُوا فِيهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ الْأُولَى ، وَقَدْ دَنَتِ الشَّمْسُ مِنْهُمْ، فَآذَتْهُمْ وَأَصَابَهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَلَا يَحْتَمِلُونَ وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ هِيَ سِوَى الشَّفَاعَةِ الَّتِي يَشْفَعُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ، لِإِخْرَاجِ مَنْ قَدْ أُدْخِلَ النَّارَ مِنْ أُمَّتِهِ، بِمَا قَدِ ارْتَكَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْخَطَايَا فِي الدُّنْيَا الَّتِي لَمْ يَشَأْ اللَّهَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهَا وَيَغْفِرَهَا لَهُمْ، تَفَضُّلًا وَكَرَمًا وَجُودًا، وَمَا ذُكِرَ مِنْ خُصُوصِيَّةِ اللَّهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ الشَّفَاعَةِ دَاخِلٌ فِي هَذَا الْبَابِ)) انتهي .

فخلاصة هذه الشفاعة العظمي في كلمات يسيرة ان النبي صلي الله عليه وسلم يشفع عند ربه ليعجل بالفصل والقضاء بين العباد لينكشف عن المسلمين الموحدين شدة الموقف ، تفهم ذلك بان الحديث فيه ان امه النبي صلى الله عليه وسلم هم اول من يحاسبون وهم المقصودون بالذات ، ومن قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث امتي امتي ولكون الشده حينئذ لهم كفاره فيسترحون بالشفاعه ولهذا يلي سؤال هذه الشفاعه مباشره دخول من لا حساب عليه من امتنا الجنه كما في حديث الشفاعه الذي تقدم وهو متفق عليه

واما الكافرون فسيحاسبون بعد المؤمنين ولن يستريحوا بل قال تعالى عنهم ويوم القيامه ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوده وما سيلاقونه بعد تعجيل الحساب اشد عذابا من العذاب الذي كان قبل الشفاعة العظمى .

- النوع الثاني من الشفاعات الخاصة بالنبي صلي الله عليه وسلم :

شفاعته فيمن يدخل الجنة بغير حساب وهذه الشفاعة تلي الشفاعة العظمي كما تقدم في الحديث.

الثالث :

شفاعته لدخول أهل الجنة الجنة ، ودليلها ما ثبت عند مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)) .

الرابع :

شفاعته في تخفيف عذاب الكفار وهي خاصة بعمه أبي طالب الذي مات كافرا

فعن أبي سعيد الخدري كما في الصحيحين (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)

الخامس :

شفاعته صلي الله عليه وسلم في تخفيف العذاب لأهل القبور كما عند مسلم في صحيحه ((اني مررته بقبرين يعذبان فاحببت بشفاعتي ان الله يرفه عنهما ما دام الغصنان رطبين)) مع العلم أن وضع الغصنين خاص به صلي الله عليه وسلم لأن حال الميتي في قبرهما من الغيب الذي أطلع الله عليه نبينا عليه الصلاة والسلام وليس هذا واردا لغيره فمن ابدع اعتياد ذلك بل هو مع ذلك من التشبه بالمشركين .

- وأما الشفاعة العامة للنبي وغيره من الانبياء والصالحين والملائكة والأفراط فهي ثلاثة أنواع:

الأول : إخراج من دخل من الموحدين النار لغلة كفة سيئاتهم في الميزان علي كفة حسناتهم

ومن أدلتها ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا: فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا ..فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط)) وقد تقدم تفسير لم يعملوا خيرا قط في باب فضل التوحيد فراجعه فإنه مهم .

ومن أدلتها كذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لنِسوةٍ من الأنصارِ: ((لا يَموتُ لإحداكُنَّ ثَلاثةٌ من الوَلَدِ فتَحتَسِبُه إلَّا دَخَلَتِ الجَنَّةَ، فقالتِ امرَأةٌ منهنَّ: أوِ اثنينَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: أوِ اثنينِ))

وكذلك ما صح عنه صلي الله عليه وسلم كما عند أبي داوود والترمذي وغيرهما ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))

الثاني:

شفاعته صلي الله عليه وسلم للمؤمنين لرفعة درجاتهم في الجنة ، ومن أدلتها ((ما رواه مسلم رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعــا لأبي سلمة فقال: اللّهمّ اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديّين، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا ربّ العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه)) .

الثالث :

فيمن استحق دخول النار ألا يدخلها ودليلها عموم حديث ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) وهؤلاء منهم فلهم هذه الشفاعة ، وأيضا للحديث ((ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)) وهذا صريح في شفاعتهم للميت إن استحق النار ألا يدخلها ، وكذلك ما صح عند الترمذي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال ((يدخلُ الجنَّةَ بشفاعَةِ رجُلٍ من أمَّتي أَكثرُ من بني تميمٍ . قيلَ يا رسولَ اللَّهِ سواكَ ؟ قالَ : سوايَ)) ومثله قوله صلي اله عليه وسلم ((ليدخُلَنَّ الجنَّةَ بشفاعةِ رجلٍ ليسَ بنبيٍّ مثلُ الحيَّيْنِ (رَبيعةَ) و (مُضرَ) فقال رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ! أو ما رَبيعةُ مِن مُضرَ ؟ قال : إنَّما أقولُ ما أُقوَّلُ)) فأوحي الله إلي بينا عليه الصلاة والسلام أن أناسا غيره سيشفعون لأناس حتي يدخلوا الجنة وهذا الحديثان دليلا علي هذا النوع من أنواع الشفاعات إذ إن النبي صلي الله عليه وسلم لم يقل أنهم يشفعون فيهم للخروج من النار بل قال لدخول الجنة ، غير أن الحديثين يعمان إخراج الموحدين من النار ، كذلك شفاعتهم لمن استحقها ألا يدخلها .

وقد سبق بيان ذلك في المقدمة المهمة بين يدي شرح كتاب التوحيد فكان مما ذكرت :

((فأهل السنة والجماعة يعتقدون استحالة انتفاء الشرك بنوعيه مع رجحان كفة السيئات في الميزان علي كفة الحسنات ، وتلك هي المسألة الشريفة مسألة الإيمان و التلازم بين الظاهر والباطن علي ما سبق بيانه في حديث عبادة وعتبان رضي الله عنهما فراجعهما ، والمراد استحالة ان يكون العبد مدمنا الكبائر ومصرا علي الصغائر ثم يسلم من الشرك ، وأما مع عدم الإصرار فمتصور كما سبق

واعلم أن هذه المغفرة التي في الحديث القدسي (لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) تؤيد أن من أنواع الشفاعات شفاعة لعدم دخول النار لمن استحقها وإن قال بعض العلماء كابن القيم أنه لا دليل عليها ، لكن ابن تيمية ذكرها وهو الصحيح وأدخلها تحت عموم قول الرسول صلي الله عليه وسلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، ويؤيدها أيضا ما سبق من أن التوحيد يغفر الله به جميع الذنوب ولو أتي بقراب الأرض خطايا نعم توحيده لا يكون كاملا كما قررناه لكن هذا في حالة إدمان الكبائر والإصرار عليها ، وفي الحديث إمكان مغفرة الذنوب لمجرد وجود أصل التوحيد ، مع أني أقول أنه لا يمتنع أن يكون عنده كبائر غالبة علي الحسنات مع عدم وجود شرك أكبر ولا أصغر وهذا في حالة ما إذا برئ من الشرك بنوعيه لكن قل عمله الصالح كأن يضيع وقته في المباحات مع وجود كبيرة ما في ميزانه بقيت عليه ولم يتب منها ، أو بمعني آخر الا يكون مدمنا للكبائر فإن إدمانها والإصرار عليها هو الذي يتسلل به الشرك للقلب كما قال ابن القيم أما أن لا يكون مصرا فهذا يتصور في حقه السلامة من الشرك كله مع رجحان كفة السيئات فيغفر ذنبه إن شاء الله لتوحيده فهذا هو المعني المراد من الحديث .

- أنواع الشفعاء :

جاءت الأدله في القران والسنه باثبات الشفاعه لانواع من الشفعاء منهم : ربنا سبحانه وتعالى كما سبق في الحديث وشفاعه القران من هذا النوع ايضا ، ومن هؤلاء الشفعاء الانبياء ومنهم رسولنا صلى الله عليه وسلم وله من الشفاعه الحظ الاعظم والنصيب الاوفر فهو اعظم الناس شفاعه، ومنهم الصديقون ، والشهداء ، والصالحون ،والملائكه والافراط وهم الذين يموتون صغارا من الاولاد وقد سموا افرطا لانهم يتقدمون ابائهم بالموت وقد سبقت الأدلة علي شفاعتهم ، ومن الشفعاء ايضا للموحدين الصيام

كما قال ﷺ فيما أخرجه الإمام أحمد في المسند بسند صححه الالباني ((الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامَةِ ، يقولُ الصيامُ : أي ربِّ إِنِّي منعْتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهارِ فشفِّعْنِي فيه ، يقولُ القرآنُ ربِّ منعتُهُ النومَ بالليلِ فشفعني فيه ، فيَشْفَعانِ)) وقال أيضا: الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم؛ فلا يرفث، ولا يفسق، فإن سابه أحد، أو قاتله؛ فليقل: إني صائم ويقول الرب -جل وعلا-: كل عمل ابن

آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به، ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. وكذلك الحجر الاسود كما ثبت عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - في الحجر - : " والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق " وثبت أنه يغفر الله بتقبيله الخطايا وقد سبق أنه تعبدي وليس لبركة فيه ذاتية .

- والمستحقون للشفاعه هم أهل التوحيد ممن قال الشهادة خالصا من قلبه كما سبق في حديث أبي هريرة ، وهم متفاوتون في استحقاقها بحسب تفاوتهم في التوحيد وأخذهم بالأسباب المستدعية لها ، من هذه الأسباب لنيل الشفاعة :

الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بالوسيله بعد الأذان ودليل هذا السبب ما ثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلي الله عليه وسلم قال ((إذا سمعتم المؤذنَ فقولوا مثْلَ ما يقولُ ثم صلُّوا عليَّ فإنَّهُ من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى اللهِ عليْهِ عشرًا ثم سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ فإنَّها منزلةٌ في الجنةِ لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ اللهِ وأرجو أن أكونَ أنا هو فمن سأل اللهَ ليَ الوسيلةَ حلَّتْ عليْهِ الشفاعةُ)).

وصلاة الاربعين موحدا والمئة على الميت صلاة الجنازة كما ثبت عن عائشة كما عند مسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه)

وكذلك عن عبد الله بن عباس : " أنه مات ابن له بقديد - أو بعسفان - فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت، فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه.

ومنها أيضا الصبر على مشقة العيش في المدينة والموت بها فهذه اسباب وردت الاحاديث الصحيحه بذكرها منها ما ثبت عنه صلي الله عليه وسلم ((من استطاع أن يموتَ بالمدينةِ فليمت بها فإني أشفعُ

لمن يموتُ بها)) فهذا الحديث وأمثاله يتقوى بها من كان من اهل الشفاعةُ واما من لم يكن منهم فلوقُدِّر انه مات في المدينه فلا يؤتى الشفاعة ، والحال التي ينال بها الشفاعة من مات بالمدينة تكون بأمرين الأول أن يكون صابرا على العيش فيها إذا ضاق ، والثاني أن يتحقق له الموت فيها فلا يندرج في هذا من مات في غير المدينه ودفن فيها فان الحديث جاء بذكر الموت فيها لا الدفن فيها .

- وللشفاعه خمسه موانع :

الأول :

الشرك ولهذا اشترط النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السابقه الموت على التوحيد لنيلها.

المانع الثاني:

الإكثار من اللعن لما أخرجه مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إن اللعانين لا يأتون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة.

المانع الثالث :

ظلم الرعية.

المانع الرابع:

الغلو في الدين والابتداع فيه والمروق منه.

ودليلهما حديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كما عند الطبراني بإسناد حسن : صنفان من امتي لا تنالهما شفاعتي إمام ظلوم ، وغال في الدين مارق منه .

والمانع الخامس : التكذيب بالشفاعة لما رواه سعيد بن منصور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من كذب بالشفاعه فليس له نصيب فيها) .

- وأول الشفعاء رسولنا صلى الله عليه وسلم لما صح عنه انه قال أنا أول شافع وأول مشفع ، يعني أنه أول من يتقدمون الشفاعة وأول من يؤذن لهم فيها ، وأما أول مشفوع لهم فرُوى فيها أحاديث لا تصح فقيل أنهم العرب، وقيل أهل مكة ، وقيل أهل المدينة ، لكن لم يصح من ذلك شيء .

- **والدعاء بطلب الشفاعة نوعان:**

الأول :

دعاء الله تعالى كأن يقول نسألك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، أو شفاعة الشفعاء ، وكره ذلك بعض السلف توهما منهم أن الشفاعة تختص بدفع المعايب والصحيح أنها لا تكره لما سبق أنه ليس كل الشفاعات طلبا لدفع النقائص بل هناك شفاعة في هول الموقف وهي الشفاعة العظمي ، وهناك شفاعة لأهل الجنه لدخول الجنه ، وشفاعة لرفعة درجات الموحدين في الجنة.

والنوع الثاني:

دعاء غير الله سبحانه وتعالى ، وهو نوعان :

الأول:

دعاء الغائب حقيقه أو حكما كدعاء الموات أو دعاء الملائكه فهذا شرك أكبر مخرج من الملة ؛ ومناطات كونه شركا سبق بيانها منها أنه جعل عبادة الدعاء والطلب لهم ، وشرك في الربوبية لأنهم لا يملكون الشفاعة ولم يؤذن لهم بعد فيها ، وشرك في الأسماء والصفات لأنهم لا يسمعون ولا يعلمون عن دعائك شيئا.

الثاني:

دعاء الحاضر كأن يقال اشفع لي يا فلان عند الله ، وهذا قسمان :

أولهما : أن يكون سؤالا لمن تحققت شفاعته كسؤال الصحابه النبي صلى الله عليه وسلم فكان جائزا ، وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم حال حياته.

وثانيهما : سؤال من لم تُتَيقَّن شفاعته ممن يرجى أن يكون شافعا من الصالحين والشهداء والصديقين ونحوهم فهؤلاء دعاؤهم نوعان:

الأول:

أن يكون مع القطع له أنه سيشفع وهذا شرك اكبر؛ لأننا لا نعلم هل هو من أهل الشفاعه أم ليس من أهلها، ونحن لا نقطع بذلك ، غير أن الله سبحانه وتعالى لم يأذن لهم بعد فيها إن كانوا من أهلها.

الثاني:

دعاؤه مع تعليق حصول الشفاعة له كقولنا يا فلان إن شفعت فاشفع لي ، فهذا جائز وليس من الشرك وفيه دليلان : الأول وقوع نظير ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أصحابه سألوه الشفاعة في حياته ، والدليل الثاني قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ((عن الصنابجي عن عبادة بن الصامت أنَّه قالَ: دَخَلْتُ عليه وهو في المَوْتِ، فَبَكَيْتُ، فقالَ: مَهْلًا، لِمَ تَبْكِي؟ فَواللَّهِ لَئِنِ اسْتُشْهِدْتُ لأَشْهَدَنَّ لَكَ، ولَئِنْ شُفِّعْتُ لأَشْفَعَنَّ لَكَ، ولَئِنِ اسْتَطَعْتُ لأَنْفَعَنَّكَ، ثُمَّ قالَ: واللَّهِ ما مِن حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لَكُمْ فيه خَيْرٌ إلَّا حَدَّثْتُكُمُوهُ، إلَّا حَدِيثًا واحِدًا وسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ اليَومَ، وقدْ أُحِيطَ بنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، يقولُ: مَن شَهِدَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عليه النَّارَ))

فسؤال من ترجى شفاعته او صدقه أو صلاحه : إن شفعك الله في أحد فاشفع لي ، هو جائز ، واختار جوازه ابن باز ، والأحسن تقييدها بمن ترجي له الشفاعة فليست من الشرك .

١) الدليل الأول من أدلة الباب قول الله عز وجل: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ }

- قال في التيسير:

((الإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة- وقوله: "به"، قال ابن عباس بالقرآن وقوله: {الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} ، أي أنذر يا محمد بالقرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون الذين يخشون ربهم،

ويخافون سوء الحساب، وهم المؤمنون، كما روي ذلك عن ابن عباس والسدي وعن "الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} ، أي: وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، فإنهم المقصودون، والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"

وقوله: {لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ} ٢. قال الزجاج: موضع "ليس" نصب على الحال كأنه قال: متخلين من ولي وشفيع، والعامل فيه "يخافون". وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذ ولي ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به لعلهم يتقون، فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة. قلت: فنفى سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما هو دين المشركين، فمن اتخذ من دون الله شفيعا، فليس من المؤمنين، ولا تحصل له الشفاعة. وليس في الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة، بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع كما قال: {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ})) **انتهي من التيسير بنصه.**

ففي الآية دليل علي إفراد الله بطلب الشفاعة وأن الشفاعة جميعا ملك له وحده سبحانه ، وأنها لا تتحقق إلا بعد إذن الله للشافع أن يشفع مع رضا الله عن الشافع والمشفوع له ولهذا وصف الموحدين هنا بأنهم علموا أن سبيل نيل الشفاعة هو توحيد الله وإفراده بالعبادات فكانوا هم أصحابها والفائزين بها وحدهم .

٢) وقوله: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً }

قال في التيسير:

((هكذا أوردها المصنف، ونتكلم عليها وعلى الآية التي قبلها ليتضح المعنى ، قال الله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ، [الزّمر: ٤٣-٤٤]

فقوله: {أَمِ اتَّخَذُوا} ، أي: بل اتخذوا، أي: المشركون. والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أي: أتشفع لهم عند الله بزعمهم كما قال: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}.

وقال: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}.

فكذبهم وكفرهم بذلك وقال تعالى: {فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}

فهذا هو مقصود المشركين ممن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله.

قوله: من دون الله أي: من دون إذنه وأمره والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأن يكون المشفوع له مرتضى، وههنا الشرطان مفقودان، فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه.

قوله: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ}.

أي: أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم، أو أموات كذلك، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} ، أي: هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شيء، قال البيضاوي: لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون، هي تماثيلهم. والمعنى: أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه، ولا يستقل بها.

وقوله: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} . تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه بأنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائنًا من كان.

وقوله: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ، أي:

فتعلمون أنهم لا يشفعون، ويخيب سعيكم في عبادتهم، بل، يكونون عليكم ضدًا ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى: {كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} ١،وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}

٣) وقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }

في التيسير :

((في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين وغيرهم، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام كقوله: {لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} ، [النبأ، من الآية: ٣٨ }

وقوله: {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [هود] . قال ابن جرير في هذه الآية: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء بالشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه كمحمد صلى الله عليه وسلم إذا قيل له: اشفع تشفع، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين.

٤) قوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}

قال أبو حيان: "كم" خبرية ومعناها: التكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء والخبر "لا تغني" والغناء جلب النفع، ودفع الضرر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء، و"كم": لفظها مفرد، ومعناها جمع ، وإذا كانت الملائكة المقربون {لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ} إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلا للشفاعة، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها؟ قلت: في هذه الآيات من الرد على مَنْ عَبَدَ الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداء، فلأي معنى يُدعَون ويُعْبَدُون؟ وأيضًا فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى.

قوله: (وعمله) ، وهو الموحد لا المشرك.

كما قال: {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} والله لا يرتضي إلا التوحيد كما قال: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه" ، فلم يقل: أسعد الناس بشفاعتي مَنْ دعاني.

فإن قال المشرك: أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بإذنه لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي. قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه، ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية كقوله: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ}.

فتبين أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك كما كان المشركون الأولون "يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله، فأنكر الله عليهم ذلك، وأخبر أنه لا يرضاه، ولا يأمر به كما قال تعالى: {وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.

وقال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} ، قال ابن كثير: تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدنيا: فتقول الملائكة: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} . وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً}.

روى سعيد بن منصور والبخاري والنسائي وابن جرير عن ابن مسعود في الآية: "كان نفر من الإنس يعبدون نفرًا من الجن فأسلم نفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم فأنزل الله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} " كلاهما بالياء.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن "ابن عباس في الآية لما كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرًا. وفي رواية عنه عندهما في قوله: {فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ} قال عيسى وأمه وعزير. وقال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} إلى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} قال ابن إسحاق: لما ذكر قصة ابن الزبعري ومخاصمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية قال: وأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ... } الآيتين، أي: عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على أمر الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله .

عرفت أن الفارق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هي مسألة الشفاعة، لأنهم يقولون: نريد من الملائكة والأصنام المصورة على صورهم بزعمهم أن يشفعوا لنا عند الله، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أتاهم بإبطال ذلك، والنهي عنه، وتكفير من دان به وتضليلهم وتسفيه عقولهم ولم يرخص لهم في سؤال الشفاعة من الملائكة، ولا من الأنبياء ولا الأصنام، بل أتاهم بقوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً} . وقوله: {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} وهذا كثير جدًا لمن تتبعه.

والمقصود أن المشركين الأولين يدعون الملائكة والصالحين ليشفعوا لهم عند الله، كما تشهد به نصوص القرآن، وكتب التفسير والسير، والآثار طافحة بذلك، ويكفي العاقل المنصف قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}.

٥)وقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. الآيتين

في التيسير :

((هذه الآية هي التي قال فيها بعض العلماء إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها قال ابن القيم في الكلام عليها وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها قطعا يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليا فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت

العنكبوت فالمشرك إنما يتخذ معبدوه لما يحصل له به من النفع والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع إما مالك لما يريد عابده منه فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مرتبا منتقلا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه قال فهو الذي يأذن للشافع وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها وأما كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا ، وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما دعا به القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فتنتقض بذلك عرى الإسلام ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان و تجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا فالله المستعان، وقال الله تعالى حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار.

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى وما أعز من يخلص من هذا بل ما اعز من يعادي من أنكره والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وهذا عين الشرك وقد أنكره الله عليهم في كتابه وأبطله وأخبر أن الشفاعة كلها له وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه ورضي قوله وعمله وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله

شفعاء فإنه سبحانه وتعالى يأذن في الشفاعة فيهم لمن يشاء حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله تعالى له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعا من دون الله والشفاعة التي أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده والتي نفاها الله تعالى هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم ويفوز بها الموحدون.انتهى

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئا فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله وهذه الآية نزلت في دعوة الملائكة ودخول غيرهم فيها من باب الأولى كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله وما له منهم من ظهير يقول من عون من الملائكة وكما يدل عليه قوله تعالى حتى إذا فزع عن قلوبهم كما تقدم فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركا فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية في هؤلاء الملاعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور وأنواع الفسوق وترك الصلوات وفعل المنكرات والمشي في الأسواق عراة كما قال بعض المتأخرين ... كقوم عراة في ذرى مصر ما ... على عورة منهم هناك ثياب ... ... يدورون فيها كاشفين لعورة ... تواتر هذا لا يقال كذاب ... يعدونهم في مصر هم فضلاءهم ... دعاؤهم فيما يرون مجاب ...

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين فضلا عن كونهم أولياء فضلا عن كونهم يدعون ويستغاث بهم إلا بشيء من المخاريق والسحر والشعبذة يدعون أن لهم كرامات وأنهم أولياء لما ليظهرونه من المخاريق واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم وإحسان الظن بمن سحرهم ودعا إلى نفسه واقتصارهم على القوانين والدعاوي والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم وإلا فلو قرؤوا كتاب الله وعلموا بما فيه ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون وتقدم الكلام على بقية الآية .

6) قال المؤلف قال أبو العباس نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال ولا يشفعون إلا لمن ارتضى فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا ثم يقال له ارفع رأسك وقل يسمع واسأل تعط واشفع تشفع .

7) وقال له أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك قال من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولاتكون لمن أشرك بالله وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص .

في التيسير : فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصا وقال في الحديث الصحيح من سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة ولم يقل كان أسعد الناس بشفاعتي فعلم أنما يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعة الرسول ﷺ وغيرها مالا يحصل بغيره من الأعمال وإن كان صالحا لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ فكيف بما لم يأمر به من الأعمال بل نهى عنه فذلك لا ينال به خير لا في الدنيا ولا في الآخرة مثل غلو النصارى في المسيح فإنه يضرهم ولا ينفعهم ونظير هذا في الصحيح عنه ﷺ أنه قال لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع في أهل التوحيد فبحسب توحيد العبد لربه

وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها وقال ابن القيم ما معناه تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه

وليا أو شفيعا أنه يشفع له وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده إحد إلا بإذنه ولا يأذن في الشفاعة الا من رضي قوله وعمله كما قال تعالى في الفصل الأول من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وفي الفصل الثاني ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها انتهى ملخصا .

وحقيقته أي حقيقة الأمر أي أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود فهذا هو حقيقة الشفاعة لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء فيدخله الجنة وينجيه من النار ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا إن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألطاف من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك

الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وشفاعته له قال ابن القيم وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها وقالوا إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد وتعليق الستور عليها وإيقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها وهو الذي قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية إليه فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده وكان ﷺ في شق وهؤلاء في شق وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله قالوا فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجه بهمته اليه وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة

وقرب من السلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم واباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم واوجب لهم النار والقرآن من أوله إلى

آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم انتهى قوله وينال المقام المحمود أي المقام الذي يحمده فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى قال ابن جرير قال أكثر أهل التأويل ذلك المقام الذي يقومه ﷺ الشفاعة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم وقال ابن عباس المقام المحمود مقام الشفاعة وكذا قال ابن ابي نجيح عن مجاهد وقال قتادة هو أول من تنشق عنه الارض وأول شافع وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود قوله فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك يعني أن الشفاعة التي نفاها الله في القرآن هي الشفاعة التي فيها شرك بالله من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله فإن الله سبحانه نفى هذه الشفاعة وأخبر أنها لا تكون أبدا بل أخبر أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه ونفى أن يكون للمؤمنين ولي أو شفيع من دونه مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه لا للمشركين كما قال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا فنفى سبحانه أن تنفع الشفاعة أحدا الا من أذن له الرحمن ورضي قوله وعمله وهو المؤمن المخلص وأما المشرك الداعي لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة ولا يؤذن لأحد في الشفاعة فيه كما قال فما تنفعهم شفاعة الشافعين وقال تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون قوله، ثم قال وقد بين النبي ﷺ ...) إلى آخره تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم .

18) باب قول الله تعالي (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

مناسبة الباب لباب الشفاعة السابق:

أولا : أنه لما تقرر أن الشفاعة ملك لله وحده - سبحانه - وأنها لا تكون لمشرك أبدا بل هي للموحدين وحدهم ، بين هنا أنه لا يجوز الاستغفار لمشرك ؛ لقول الله تعالي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي كذلك الاستغفار لا يكون لمشرك وإنما للموحدين وحدهم دون غيرهم.

وثانيا : بما أن الشفاعة التي هي لإنقاذ الناس من النار إلي الجنة يوم القيامة ملك لله وحده ولا تكون إلا بعد إذن الله ورضاه عن الشافع والمشفوع له ، فكذلك إنقاذ الناس في الدنيا من الكفر إلي الإيمان ، ومن البدعة الي السنة ، لا يكون كل هذا إلا بإذن الله ، فما علي الرسول صلي الله عليه وسلم ومن ورثه من العلماء إلا هداية الإرشاد والبيان والبلاغ ، وأما هداية التوفيق والإلهام والانقياد والإذعان فلله وحده ، فالأمر كله لله وحده أولا وآخرا فعلي العبد أن يعلق قلبه بالله وحده لا بالمخلوقين كانوا ما كانوا ؛ فمن اعتقد أن أحدا غير الله يملك هداية التوفيق فقد أشرك بالله الشرك الأكبر ، شركا في العبادة بطلب هذا النوع من نوعي هداية من غير الله سبحانه ، وشركا في الربوبية لأن هداية التوفيق من أفعال الله سبحانه لا يملكها غيره جل في علاه.

قلت في كتابي (كتاب القضاء والقدر) في بيان الفرق بين هداية الإرشاد والبيان وبين هداية التوفيق والإلهام:

((هداية الإرشاد والبيان للمكلفين : هذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطا فيه أو جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضي إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع ولهذا قال تعالي (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي علي الهدي) وهذه الهداية هداية الإرشاد والبيان هي التي أثبتها الله لرسوله صلي الله عليه وسلم فقال (وإنك لتهدي إلي صراط مستقيم) ونفي عنه النوع الثاني من نوعي الهداية وهي هداية التوفيق والإلهام فقال (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين).

النوع الثاني من نوعي الهداية : هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من هداية الإرشاد والبيان ، وهذه المرتبة تستلزم أمرين : أحدهما فعل الرب وهو الهدي ، والثاني فعل العبد وهو الاهتداء بالأخذ بأسباب الهداية ، فالله هو الهادي والعبد مهتدي ، قال تعالى: (من يهد الله فهو المهتدي)

وثالثا : محاجة المشركين بإقرارهم بوحدانية الله سبحانه في هداية الخلق هداية التوفيق ، فالمستحق إذن للعبادات كلها التي منها طلب هداية التوفيق هو الله وحده ، ولهذا أنكر الله سبحانه علي المشركين عبادتهم لغيره سبحانه مع أن هذه المعبودات التي يعبدونها لا تهدي إلي الحق ، كما قال تعالي:

(قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ)

قال ابن كثير في تفسيره:

((أَيْ: أَفَيُتَّبَع العبد الذي يهدي إلى الْحَقّ ويُبَصّر بَعْدَ الْعَمَى، أَمِ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يُهْدَى، لِعَمَاهُ وَبُكْمِهِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مَرْيَمَ: ٤٢] ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٥، ٩٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ* * * .

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: فَمَا بَالُكُمْ يُذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ، كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلقه، وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهَذَا، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا؟ وَهَلَّا أَفْرَدْتُمُ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَالِكَ الْحَاكِمَ الْهَادِيَ مِنَ الضَّلَالَةِ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالْإِنَابَةَ))انتهي.

رابعا : أن النبي - صلي الله عليه وسلم - مع أنه سيد ولد آدم ، وخليل الله سبحانه لا يملك هذه الهداية هداية التوفيق ولهذا لم يستطع أن يهدي عنه بل مات أبو طالب كافرا ، فمن باب أولي وأحري من دون النبي صلي الله عليه وسلم ، فلا يوجد مخلوق في الدنيا ، ولم يوجد ، ولن يوجد من يستحق أن يدعي مع الله سبحانه ، أو تصرف له أي عبادة من العبادات ولو كانت في نظر الناظر هينة ! بل هذا هو

الكفر الأكبر المخرج من الملة المخلد صاحبه في الجحيم - فاللهم أعذنا من الشرك صغيره وكبيره وأحيينا وأمتنا علي التوحيد والسنة -

- قال في التيسير:

((أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة. وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك، ويحتجون على ذلك بقوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} يقول قائلهم [البوصيري] في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم الروح والقلم.

فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه; تبين له بطلان قولهم وفساد شركهم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق ، وأقربهم من الله، وأعظمهم جاها عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه، ثم استغفر له بعد موته، فلم يغفر له حتى نهاه الله عن ذلك.

ففي هذا أعظم البيان، وأوضح البرهان على أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا عطاء ولا منعًا، وأن الأمر كله بيد الله، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضر عمن يشاء، ويصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم وهو الذي من جوده الدنيا والآخرة، وهو بكل شيء عليم. ولو كان عنده صلى الله عليه وسلم من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب شيء ; لكان أحق الناس به، وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره، وأحاطه من بلوغه ثمان سنين إلى ما بعد النبوة بثمان سنين أو أكثر، بل قال تعالى: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

وقال تعالى: {قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى} ، فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها، والإيمان بذلك البيت وما أشبهه، ولكن قاتل الله أعداءه الذين جاوزوا الحد في إطرائه والغلو فيه.

وأما معنى الآية فقال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة كما قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} .

وقال تعالي (وما أكثر النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} ، وهذه الآية أخص من هذا كله فإنه قال: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} أي: أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في "الصحيحين" أنها نزلت في أبي طالب، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في حقه، ويحبه حبًا طبعيًا لا حبًا شرعيًا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه، واختطف من يده، واستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحجة البالغة. فإن قلت: قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

فالجمع بينها وبين الآية المترجم لها، قيل: الهداية التي تصح نسبتها لغير الله بوجه ما هي هداية الإرشاد والدلالة، كما قال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ،أي: ترشد وتبين، والهداية المنفية عن غير الله هي هداية التوفيق)) انتهي .

- **دليل الباب :**

قال: في " الصحيح " عن ابن المسيب عن أبيه قال. "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال: يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك فأنزل الله عز وجل: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [التوبة] " وأنزل الله في أبي طالب: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}

- وسؤالي لك - أيها القارئ الكريم - في ضوء ما تقدم من شرح الأبواب : ما هي ملة عبد المطلب التي مات عليها أبو طالب عم النبي صلي الله عليه وسلم والتي بسببها مات كافرا ؟ ما هي ملة عبد المطلب التي مات عليها أبو طالب والتي بسببها نهي الله نبيه - صلي الله عليه وسلم - أن يستغفر لعمه ؟

هذا سؤال من أهم ما يكون ! ومن لم يستطع الإجابة عن هذا السؤال فليراجع توحيده وليتعلم معني لا إله إلا الله ، وليتعلم ركنيها النفي والإثبات اللذين لا توحيد ولا إسلام لأحد إلا باجتماعهما ؛ فكما سبق لن تقوم للتوحيد ساق إلا بنفي وإثبات : كفر بالطاغوت وإيمان بالله ، وقد تقدم بيانهما وشرحهما في الأبواب الأولي وفي مقدمة الكتاب أيضا ، فإن النفي المحض إلحاد محض ، والإثبات المحض الخالي من النفي لا يمنع الشرك.

فهل كفر أبو طالب لسوء خلقه ؟! كلا ، بل إيواؤه لابن أخيه محمد - عليه الصلاة والسلام - خير دليل علي حسن خلقه فلم ينفعه ذلك.

هل كفر أبو طالب لاعتقاده النفع والضر في المعبودات التي اتخذها مع الله آلهة ؟ كلا ، بل كان هو وغيره من مشركي قريش يعلمون ان النفع والضر والخلق والرزق وغيرها إنما هي من أفعال الله وحده فلم ينفعهم ذلك أيضا ، هل كفر أبو طالب بسبب عدم عبادته لله سبحانه ؟ كلا ، بل كان هو وغيره من مشركي العرب من أعبد الناس لله سبحانه علي بقايا وصلتهم من ملة ابراهيم عليه السلام فلم ينفعهم ذلك أيضا ، وإن شئت فاقرأ قوله تعالي (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) يعني كمن وحد الله !

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :

((يعني : الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسماهم الله " ظالمين " بشركهم ، فلم تغن عنهم العمارة شيئا ، والله لا يهدي القوم الظالمين يعني أن ذلك كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك))انتهي

فأعظم مسألة أن تعلم لم صار المشركون مشركين فإن الشرك معلوم قبحه بالعقل وبالفطرة ، والتوحيد معلوم حسنه بالعقل وبالفطرة لكن الدعوة الي التوحيد والتحذير من الشرك بإجمال لن ينفع النفع المرجو كما تقدم أول الكتاب في المقدمة، ما الذي جعلهم مشركين مع هذه العبادات العظيمة عندهم ، بل مع اعتقادهم أن الخلق والرزق والتدبير له دون آلهتهم ؟ والجواب لأنهم مشركون في العبادة ، فلم يعبدوا الله وحده بل عبدوه وعبدوا معه غيره ، فكانوا يدعون الله ، ويدعون آلهتهم مع الله ، كانوا يذبحون ءبح القربات لله ، ويذبحون مع ذلك لآلهتهم مع الله ، يطلبون المدد من الله ، ويطلبون مع ءلك المدد من آلهتهم مع الله ، كانوا يطلبون الشفاعة من الله ، ويطلبون مع ذلك الشفاعة من آلهتهم مع الله والآيات القرانية في ذلك كثيرة ، كانوا يستغيثون بالله ، لكن كانوا مع ذلك يستغيثون بآلهتهم مع الله فصارت العبادة شركة بين الله سبحانه وبين آلهتهم ، وهذه هي حقيقة الشرك كما تقدم أول الكتاب في معرفة محل النزاع بين جميع الرسل وأقوامهم فراجعه فإنه مهم.

ولم ينفع أبا طالب نصرته لابن أخيه رغم أنه كان يعلم صدقه ، فحبط عمله بالشرك ،

وشعره في ذلك صحيح مشهور ، قال:

ولقد علمت بأن دين محمد هو خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

والمسبة التي خاف منها إن استجاب ووحد الله وآمن برسول الله هي مسبة آبائه وأجداده بنسبتهم إلي الشرك والملة الباطلة ، فإن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك والمشركين واعتقاد كفرهم .

- وقوله (لما حضرت أبا طالب الوفاة) المراد علاماتها ، وهنا فرق لا بد من معرفته ، وهو الفرق بين الاحتضار وبين النزع و معاينة الموت ؛ فإن الاحتضار هو الحال التي تصيب الإنسان عند قرب موته وهي دون مرتبة معاينة الموت التي يكشف فيها الحجاب عن المحتضر وينتقل فيها من حال الاعتدال وفهم الكلام إلي حالة أخري لا يكون فيها كذلك ، والحال التي تنفع فيها الشهادة هي حال الاحتضار دون حال المعاينة ، وهذا جواب من قال كيف أمره الرسول - صلي الله عليه وسلم - بالشهادة وهي لا تنفع عند النزع ولا طلوع الشمس من مغربها لقول الرسول صلي الله عليه وسلم كما

عند مسلم من حديث أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)).

وقوله أيضا صلي الله عليه وسلم كما عند الترمذي وغيره من حديث ابن عمر ((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ))

وقول الله عز وجل :

((فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ))

فالجواب هو ما ذكرناه أن قول الشهادة ينفع في حال الاحتضار دون حال النزع ومعاينة الموت ، ولهذا أمره النبي صلي الله عليه وسلم بقولها ، ولهذا نفعت الغلام اليهودي كما صح عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه .

((كانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَمَرِضَ، فأتَاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقالَ له: أسْلِمْ، فَنَظَرَ إلى أبِيهِ وهو عِنْدَهُ فَقالَ له: أطِعْ أبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأسْلَمَ، فَخَرَجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يقولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ))

وقال ابن عثيمين في القول المفيد:

((والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا; فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي صلى الله عليه وسلم ويستدل لذلك بوجهين:

أ- أنه قال: " كلمة أحاج لك بها عند الله "، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب- أنه سبحانه أذن للنبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: "لما حضرت أبا طالب الوفاة" مطابقا تماما لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ} وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب نفسه)) **انتهي.**

لكن يقوي القول الأول الذي قدمته أن الاحتضار الذي لا تنفع فيه التوبة فسرته السنة بأنه الغرغرة أي النزع ومعاينة الموت ، لأن قوله صلي الله عليه وسلم في الحديث ((ما لم يغرغر)) ما هنا ظرفية زمانية أي أن الله يقبل التوبة في كل زمان إلا حال الغرغرة وهي حال النزع ومعاينة الموت.

قال الطبري في تفسير قوله تعالي (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتي إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما)

قال :

((يعني بذلك جل ثناؤه: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله ="حتى إذا حضر أحدهم الموت"، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، قال = وقد غُلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته = "إني تبت الآن"، يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة، لأنه قال ما قال في غير حال توبة)) انتهي .

وقد حصل لغط بين الناس في شأن

((رجل كافر مريض مرض موت ولقنه أحد الحضور الشهادة فنطقها ومات بعدها بيسير ، هل تنفعه الشهادة وهو لم يجاهد في حياته كلها للاسلام - كذا يقولون - ولم يسلم ولم يعمل خيرا قط الا هذه اللحظة))

والجواب : بلي ، تنفعه إذا قالها بشرط ان يكون عالما لمعناها ، و ((ما لم يغرغر)) فالمريض ولو في مرض الموت تصح منه التوبة ما لم تصل الروح إلى الحلقوم؛ ولهذا ذكر العلماء أن المريض إذا حضره الموت يذكر بالتوبة ويذكر بالشهادة، فإنها تنفعه .

وضابط مرض الموت هو المرض الذي يكون سببا للموت بحسب التجارب وكلام المختصين ، وأن يكون متصلا بالموت فإن شفي منه لم يكن مرض موت ولم تترتب عليه أحكامه المبثوثة في مواضعها في فقه المواريث والوصايا والهبات والطلاق والجنايات فله احكام تتعلق بهذه الابواب كلها

هذا وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، أما اذا وقع اليأس من حياته ، وعاين ملك الموت، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس فلا توبة مقبولة حينئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوتْ قال اني تبت الان}

والناس في هذه المسألة علي ضربين :

أما الخارجي فيعتقد اعتقادا يلقي الله عليه أنها لن تنفعه فيعتقد كفر المسلم **!**

وأما المرجئ فيقول تنفعه لأنه لا يشترط في الايمان العمل وأن تارك العمل مؤمن ناقص الايمان ، وهذا علي منهج المرجئة.

وأما معتقد الجماعة أن قوله الشهادة ينفعه بالشرطين السابقين

وأنه لا يشكل هذا علي معتقدنا أن العمل ركن في الإيمان وأن تارك العمل - وهو أركان الإسلام لا سيما الصلاة - كافر كفرا أكبر ولو قال الشهادة

فإن العمل ركن في الإيمان لا يصح إيمان أحد إلا بالعمل والمراد به أركان الإسلام ومبانيه العظام : الصلاة والزكاة والصوم والحج.

فمن لم يفعل من ذلك شيئا حتي يموت كان كافرا الا اذا حيل بينه وبين العمل امر من الامور كما إذا قالها ووافته منيته مباشرة بعدها ، وهذا أحد الأوجه التي وجه بها العلماء حديث البطاقة وأمثاله.

وهذا قد بينته – بتوفيق الله – في كتابي (مسألة الإيمان) فراجعه فإنه في غاية الأهمية.

قال في التيسير :

((وفي الحديث أن من كان كافرا يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام ، فإن كان صادقا من قلبه نفعته عند الله ، فليس لنا إلا الظاهر ، بخلاف من كان يتكلم بها في حال كفره)) انتهي

فمن قال من الكافرين عند موته الشهادة حكم بإسلامه ، وأجريت عليه أحكام الإسلام الظاهرة .

- والحديث نص في موت أبي طالب علي الكفر ، ومات أبو جهل علي الكفر أيضا ، وأما عبد الله بن أبي أمية فأسلم يوم الفتح واستشهد في حنين ، والمسيب صحابي بقي إلي خلافة عثمان رضي الله عنه ومات علي الإسلام ، قال في قرة عيون الموحدين ((في قرة العيون: فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم. ففيه معنى قول الناظم: إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى)).
- وفي الحديث جواز عيادة المشرك إذا رجي إسلامه.
- وقول الرسول صلي الله عليه وسلم (أحاج لك بها عند الله) يعني أن تكون له حجة عند الله في استحقاقه المغفرة والرحمة إذ بها يدخل في الإسلام فتنفعه ، ففي الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدا ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته .
- ومن حكمة الرب تعالي في موت أبي طالب علي الكفر و عدم هدايته إلي الإسلام أن يبين لعباده أن هداية الخلق إليه ، وهو القادر عليه ، دون من سواه ، فلو كان عند النبي صلي الله عليه وسلم - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول! وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

((فإذا كان هذا مسلوبا من خير الخلق وهو النبي - صلي الله عليه وسلم - ممتنعا عليه ، **فغيره أولي** بالسلب والمنع أن تكون له قدرة لهداية أحد ، والأمر كله إلي الله تعالي فمن شاء عز وجل هداه ومن شاء أضله فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن فمن شاء أقامه أي أدامه علي الهدى ومن شاء أزاغه أي أماله عن الهدى ، فإذا وقر هذا في قلب العبد علم أنه مفتقر إلى هداية الله عز وجل في كل حال فلا يزال مستجديا إياه أن يهديه إليه ولهذا أمر أحدنا أن يقول في كل صلاة يصليها إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم للإعلام بشده الفاقه والحاجة إلى هداية الله عز وجل ، وأن العبد مفتقر في كل حركه وسكون الى أن يهديه الله إلى ما فيه منافعه العاجلة في الدنيا والآخرة ، وإذا حرم العبد هداية الله ومنع منها فإنه لا سبيل إلى الوصول إلى منافعه ؛ فإن الإنسان عاجز ضعيف لا علم له بشيء ولا قدرة له على شيء ولا حاجه له على كل شيء فحقيقة عبوديته لله إدامته الافتقار في سؤاله الهداية، فلا يزال ناظرا إلى نفسه بعين الحاجة والفاقة وأنه ملتمس من الله ان يمن عليه بالهداية ، ومهما أوتي العبد القوى والقدر فإنه لا سبيل له من القيام بمصالحه إلا بمعونة الله عز وجل

إذا لم يكن عون من الله للفتي : فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقال آخر:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم

ولا تصحب الأردي فتردى مع الردي)) **انتهي**

- **قال في التيسير** ((قوله هو على من عبد المطلب الظاهر أن أبا طالب قال (أنا) فغيَّره الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب ؛ استقباحا للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنه ، قاله الحافظ ، ورواه الإمام أحمد بلفظ أنا فدل على ما ذكرناه)) انتهى . ورواية البخاري (هو).

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

((والقاعدة في الشريعه لزوم الأدب في الخطاب والعدول عما يستقبح ، وهذا كثير في الكتاب والسنة ، وأظهره ذكر المستقبحات بالكنايات - يقصد أمثال الإفضاء عن الجماع ، والنكاح عن الإيلاج ونحوها

- فلا يصرح به رعاية للأدب الكامل ، وهذا هو اللائق لطلاب الكمالات وذوي المعاني من ملتمسي العلم والعمل ان يحرصوا على سلوك هذه الجادة وأن يقيموا ألسنتهم علي العفاف ، ولا يتساهلوا في نقل ما يستقبح من الكلام ولو كان خبرا عن غيرهم ؛ فإن من عف لسانه عف قلبه وزكاه ومن اعتاد لسانه القبائح انجرت تلك القبائح إلى قلبه ووقع في الفضائح ، فاللسان مغراف القلب الذي ينزع منه ويؤدي عنه ، فإذا جري تأديب اللسان على المستملح من الكلام والمباعدة عن مستقبحه ، ونفوره من شاذه المرذول عند الله وعند خلقه ، واعتاد انتقاء الأطايب من الكلام تأدب الباطن فكان مطبوعا على هذه السجية محبا للطيبات مبغضا للخبائث ، وإذا كان الإنسان متهتكا في جريان لسانه بالقبائح لا يبالي بها ولا يتحفظ من إرادتها خيف عليه أن يأنس لسانه بذكرها ويميل قلبه اليها فتصير تلك القبائح التي جرت علي لسانه ، واعتاد طلبها ، وأكثر من ذكرها صار طبعا لها)) انتهي كلامه .

- قال العصيمي ((ولا يصح تسميه عام خديجة وعم النبي صلى الله عليه وسلم بعام الحزن لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله من الحزن ، والحزن حال تغلب ولا تطلب أي تعتريه ، ولا يطلب الانسان التماسها وتحصيلها فتغشاه قدرا ، ولا يطلب منه شرعا ، ولا تعد من المقامات العبودية وقد غلط في منازل السائلين بعدها مقاما للعبودية ، وتعقبه ابن القيم في مدارج السالكين بما يحسن مراجعته ومطالعته ، فالحزن حال تعتري العبد ، وينبغي عليه أن يتخلص منه ولا يحسن به أن يطلبها ، ولا أن يجعل تلك الحال حاكمة عليه ، بل يكون متحكما فيها، فهذه الحال اعترته صلي الله عليه وسلم فلم يطلبها أصلا ، ولا بقيت حاكمة عليه، فالأحسن عدم تسمية عام فقد عمه وخديجة عام حزن)انتهي.

- وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وحرمة موالاتهم ومحبتهم لأنه اذا حرم الاستغفار لهم حرمت موالاتهم ومحبتهم من باب أولي تعظيما لحق الله.

- قال في التيسير :

((أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة.

وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك، ويحتجون على ذلك بقوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} يقول قائلهم [البوصيري] في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم الروح والقلم.

فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه; تبين له بطلان قولهم وفساد شركهم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق

وأقربهم من الله، وأعظمهم جاها عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب في حياة أبي طالب وعند موته، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه، ثم استغفر له بعد موته، فلم يغفر له حتى نهاه الله عن ذلك.

ففي هذا أعظم البيان، وأوضح البرهان على أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولا عطاء ولا منعًا، وأن الأمر كله بيد الله، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويكشف الضر عمن يشاء، ويصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم وهو الذي من جوده الدنيا والآخرة، وهو بكل شيء عليم. ولو كان عنده صلى الله عليه وسلم من هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب شيء ; لكان أحق الناس به، وأولاهم من قام معه أتم القيام ونصره، وأحاطه من بلوغه ثمان سنين إلى ما بعد النبوة بثمان سنين أو أكثر، بل قال تعالى: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ١. وقال تعالى: {قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى} ٢. فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها، والإيمان بذلك البيت وما أشبهه، ولكن قاتل الله أعداءه الذين جاوزوا الحد في إطرائه والغلو فيه.

وأما معنى الآية فقال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة كما قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} وهذه الآية أخص من هذا كله فإنه

قال: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} أي: أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية. وقد ثبت في "الصحيحين" أنها نزلت في أبي طالب، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في حقه، ويحبه حبًا طبعيًا لا حبًا شرعيًا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه، واختطف من يده، واستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحجة البالغة.) **انتهي** .

- وفي الحديث دليل علي أن الحب الطبيعي وحده لا ينجي صاحبه بل لا يدخله الإسلام حتي يحب الرسول صلي الله عليه وسلم حبا شرعيا مؤمنا به .

- **وقال في التيسير:**

(قوله (قل لا إله إلا الله) أي قل هذه الكلمة عارفا لمعناها ، معتقدا له في هذه الحال وإن لم تعمل به ، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك ، ولا بد مع ذلك من شهادة أن محمدا رسول الله ....قوله: (فقالا له) : أترغب عن ملة عبد المطلب. ذَكَّرَاهُ الحجة الملعونة التي يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين، ويردون بها على الرسل، وهي تقليد الآباء والكبراء، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار لعظمة هذه الحجة في قلوب الضالين، وكذلك اكتفيا بها في المجادلة، مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرا عليها. قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعي العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال الرجل: قل لا إله إلا الله. فقبح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام) **انتهي.**

يعني أنهم عرفوا أنها تتضمن البراءة من الشرك والمشركين وتكفيرهم فأبوا أن يقولوها لأن آباءهم كانوا علي ضدها.

-وفي صحيح مسلم عن أنس: أن رجلا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفى دعاه، فقال: إن أبي وأباك في النار.

وفيه عن أبي هريرة قال : زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت.

وبهذا تعلم أن من مات علي الشرك فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين كما قال تعالي (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ، قال السعدي في تفسيره:

((يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾)) انتهي.

الباب التاسع عشر ، والعشرون ، والحادي والعشرون ، والثاني والعشرون يأتيك أيها القارئ الكريم بيان مسائلهم في الجزء الثالث إن شاء الله ، وعناوين هذه الأبواب هي : باب ما جاء في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ، ثم باب ما جاء في التغليظ فيمن عد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ، ثم باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين تصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، ثم باب ما جاء في حماية المصطفي عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد .

23) باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

- مناسبة الباب لما قبله :

أراد المصنف بهذه الترجمة الردّ على عباد القبور، الذين يفعلون الشرك ويقولون: إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ، وأن الشرك واقع في هذه الأمة فهي كغيرها من الأمم وإن كانت هي أفضل وأشرف بشرف نبيها صلي الله عليه وسلم لكن يقع الشرك ببعضها وإن لم يقع بجميعها ؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ ، وكانت صنما تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة - اسم مكان في اليمن-) أي يكفرون ويرجعون إلي عبادة الأصنام ، وَذُو الخَلَصَةِ : طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَه فِي الجَاهِلِيَّةِ ، واضطراب أليات النساء - أي أعجازهن - هناك كناية عن زحامهم عند الصنم وفوق الدواب يعبدونه .

وعند مسلم من حديث عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم قال (لا يَذْهَبُ اللَّيْلُ والنَّهارُ حتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ والْعُزَّى، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أنْزَلَ اللَّهُ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} أنَّ ذلكَ تامًّا، قالَ: إنَّه سَيَكونُ مِن ذلكَ ما شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَن في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ، فَيَبْقَى مَن لا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إلى دِينِ آبائِهِمْ).

- وكذلك من الأدلة علي أن الكفر سيقع كفر أقوام بإيمانهم بالدجال كما أخبر صلي الله عليه وسلم كما أخرجه ابن ماجة (وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك ، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة) ، وفي مسند أحمد (ينزل الدجال في هذه السبخة بمر قناة ، فيكون أكثر

من يخرج إليه النساء ، حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطا مخافة أن تخرج إليه).

- وقوله (بعض هذه الأمة) هي أمة الإجابة وهم من آمن برسالته صلي الله عليه وسلم ، وأما أمة الدعوة فهم كل من جاء بعد بعثته - صلي الله عليه وسلم – فتشمل الكفار، وليست هي المرادة من ترجمة الباب.

- والأوثان جمع وثن وهو كل ما عبد من دون الله سواء كان له صورة أو لم يكن كالقبر ، وأما الصنم فما كان له صورة ، وقيل أن الوثن والصنم من الألفاظ التي إذا افترقت اجتمعت أي صار معناهما واحدا ، وإذا اجتمعت افترقت أي صار لكل واحد معناه السابق.

- وأما قول الرسول صلي الله عليه وسلم كما في الصحيح (إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب) فيستدل به بعض العوام علي عدم وقوع الشرك!

وجواب ذلك من وجوه:

الأول:

أن الشيطان قد أيِس حينها بعدما قويت شوكة المسلمين بالفتوحات ودخل الناس في دين الله أفواجا ، لكن الشيطان لا يعلم الغيب ! فليس إياسه مستمرا ؛ فإن إياسه كان من نفسه ولم يؤيسه الله تعالي.

الثاني:

أن الحديث في جزيرة العرب خاصة لا كل المسلمين.

الثالث :

أن الحديث ليس معناه أنه لن يشرك بالله أحد من هذه الأمة وإنما الحديث في أن قوة التوحيد هي سبيل النجاة ولهذا قال تعالي (إنه ليس له سلطان علي الذين ءامنوا وعلي ربهم يتوكلون إنما

سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ولهذا فسبيل نجاة أمتنا في الدعوة إلي توحيد الله تبارك وتعالي.

الرابع:

أن معني الحديث أن الشرك لن يقع من جميع الأمة وإنما يقع من أفراد دون آخرين وفي مناطق دون أخري مصداقا لقول الرسول - صلي الله عليه وسلم - كما في الصحيحين (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك).

الخامس :

أن أل في كلمة (المصلين) للعهد الذهني فهي عائدة علي الصحابة حينها.

السادس : أن الواقع شاهد علي حصول الكفر والردة فما أكثر المنافقين والملحدين في زماننا وفي كل زمان ، وكذلك من ارتد بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم.

1) قول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد سبيلا)

- **في التفسير الميسر**:

(ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم يصدقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام وشياطين الإنس والجن تصديقا يحملهم على التحاكم إلى غير شرع الله، ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: هؤلاء الكافرون أقْوَمُ، وأعدلُ طريقًا من أولئك الذين آمنوا؟

أولئك الذين كَثُرَ فسادهم وعمَّ ضلالهم، طردهم الله تعالى من رحمته، ومَن يطرده الله من رحمته فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب)انتهي.

- والجبت هو كل ما لا خير فيه ، والطاغوت كذلك ، وقيل الجبت السحر والطاغوت الشيطان وهو المروي عن عمر رضي الله عنه ، وقيل الجبت الصنم والطاغوت هم الداعون إليه ، وقيل الطاغوت الكاهن ، وكل هذه التفاسير من اختلاف التنوع فتحمل الآية عليها كلها لأنه لا تعارض بينها ، وقال الطبري في التفسيرعن الطاغوت (اسم لكل مُعظَم من دون الله ذو طاعة أو خضوع له كائنا من كان من حجر أو إنسان أو شيطان) انتهي ، وهذا شامل لجميع التفسيرات السابقة.

وقيل الجبت حُيي ّبن أخطب ، والطاغوت كعب بن الأشرف وقد نزلت الآية فيهما ؛ فقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نَصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا ،فأنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً}.

- ومناسبة هذه الآية في الدلالة علي أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان من وجوه:

الأول:

أنها في أهل الكتاب ، وقد سبق أن بعض أمتنا سيتبعون سننهم كما ذكرنا في باب التبرك بشجر وحجر ونحوهما ، وسيأتي مزيد بيان فيه.

الثاني:

أن العلم لا يعصم من الوقوع في الشرك ، فاليهود والنصاري كفروا مع أنهم كانوا أهل كتاب فلم ينفعهم إيمانهم شيئا.

الثالث:

أن كفر اليهود والنصاري وغيرهم لم تمنعه بعثة نبينا صلي الله عليه وسلم.

٢) قال تعالي (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)

- قل يا أيها الرسول الكريم لمن كفر واستهزأ بك وبشرعك هل أُخبِركم بجزاء أشد من جزاء الفاسقين من الكتابيين ، أو بشر من نقمكم علينا ، أو أخبركم بشر مما تريدوننا به من مكروه وأنكم أشد عيبا منا ؟ إنهم أسلاف أولئك الذين طردهم الله من رحمته وغَضِب عليهم، ومَسَخَ خَلْقهم، فجعل منهم القردة والخنازير؛ بعصيانهم وافترائهم وتكبرهم، كما كان منهم عُبّادُ الطاغوت [وهو كل ما عُبِد من دون الله وهو راضٍ]، لقد ساء مكانهم في الآخرة، وضلَّ سَعْيُهم في الدنيا عن الطريق الصحيح.

- الشاهد من الآية علي أن الكفر واقع من هذه الأمة أمة الإجابة والدعوة أنهم أهل كتاب ومع ذلك وكفروا.

٣) وقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً}

- المتخذون علي الفتي الموحدين أصحاب الكهف مسجدا قيل هم المشركون وقيل المسلمون وقيل الحكام وأصحاب القوة والغلبة وهذا هو الظاهر من الآية وقد رجَّحه ابنُ كثير في تفسيره.

وفي التفسير الميسر (وكما أنمناهم سنين كثيرة، وأيقظناهم بعدها، أطْلَعنا عليهم أهلَ ذلك الزمان، بعد أن كشف البائع نوع الدراهم التي جاء بها مبعوثهم؛ ليعلم الناس أنَّ وَعْدَ الله بالبعث حق، وأن القيامة آتية لا شك فيها، إذ يتنازع المطَّلِعون على أصحاب الكهف في أمر القيامة: فمِن مُثْبِتٍ لها ومِن مُنْكِر، فجعل الله إطْلاعهم على أصحاب الكهف حجة للمؤمنين على الكافرين، وبعد أن انكشف أمرهم، وماتوا قال فريق من المطَّلِعين عليهم: ابنوا على باب الكهف بناءً يحجبهم، واتركوهم وشأنهم، ربهم أعلم بحالهم، وقال أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم: لنتخذنَّ على مكانهم مسجدًا للعبادة. وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ولعن مَن فَعَلَ ذلك في آخر

وصاياه لأمته، كما أنه نهى عن البناء على القبور مطلقًا، وعن تجصيصها والكتابة عليها؛ لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلى عبادة مَن فيها).

ووجه الدلالة أن الأمة ستتبع سنن هؤلاء ؛ فإنه ما من خصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في أمتنا ، وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة فإن النبي صلي الله عليه وسلم قد أخبرنا بذلك كما في قوله (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر أو ذراعا بذراع حتي إذا دخلوا جحر ضب لدخلتموه) كما في الحديث الآتي.

٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضَ لدخلتموه) قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن)؟ أخرجاه.

- وهذا قَسَمٌ من النبي صلي الله عليه وسلم أن كل كفر وشرك حصل في الأمم قبلنا فسيحصل في أمتنا ولهذا قال (حذو القذة بالقذة) والقذة أذنا السهم وهذا كناية عن التماثل بين بعض أمتنا وبين الأمم الكافرة قبلنا ، وأكد النبي ذلك بالقسم تحذيرا لأمته ، وهذا الحديث دلالته صريحة علي مقصود الباب ، وجاء في رواية أخري عند البخاري قال (فارس والروم) فأراد صلي الله عليه وسلم بالرواية الأولي أن أمته ستتبع طرائق وسنن اليهود والنصاري فيما يتعلق بالديانة باعتبار ما أحدثوه من الشرك والكفران ، وأراد بالرواية الأخري ما يتعلق بالحكم والسياسة ، والأمران واقعان منذ زمن فوجد في الأمة الشرك وعبادة غير الله من الغلو في الأنبياء وقبور الصالحين ، ووجد فيهم كذلك الشرك في الطاعة وتحكيم القوانين المضادة لشرع الله وحكمه ، وكذلك شابهوهم واتبعوا سننهم في الأخلاق والسلوك والعادات وهذا مشاهد ومعلوم.

وقد نقل ابن القيم في إغاثة اللهفان قول سفيان الثوري :

(مَن فَسَد من علمائنا ففيه شَبَه من اليهود، ومَن فسد من عُبّادنا ففيه شَبَه من النصارى) فإنَّ اليهودَ عرفوا الحق وما عملوا به، فالعالمُ الفاجر فيه شبهٌ منهم، والنصارى عبدوا الله بغير علم، فالعابد الجاهل فيه شَبَهٌ منهم.

٥) ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلكَها ما زُوى لي منها ، وأعطيتُ الكنْزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ بِعَامَّة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيحَ بيضتهم؛ وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا "

- قوله (إن الله زوي لي الأرض) أي جمعها وطواها حتي رأي مشارقها ومغاربها ، ورأي أن أمته ستتسع رقعتها ، والكنز الأحمر هو الذهب ، والأبيض الفضة وهذه بشارة بفتوحات المسلمين وانتصارهم علي أعدائهم وقد كان ذلك في عهد عمر رضي الله عنه ففتح فرس كسري وروم قيصر.

- وقوله (ألا يُهلِكها بسنةٍ بعامة) أي بقحط عام وجدب عام ؛ فأجابه الله بذلك ؛ فلن تصاب أمتنا بقحط عام ولا مجاعة تشملها لكن قد يحصل في مناطق دون أخري.

- وسأل الرسول صلي الله عليه وسلم ربه جل وعلا وأن لا يسلط عليهم - أي علي أمته - عدوا من سوى أنفسهم - أي من الكفار وليس المراد من غير العرب فإننا ليس عندنا إلا أمة مسلمة ولو كان منها عجم وأمة كافرة ولو كان منها عرب مسلمون في الظاهر لكن يشركون بالله الشرك الأكبر ويعبدون مع الله غيره فهؤلاء كفار؛ فمن كان من العرب مسلما فهو مسلم ومن كان مشركا أو مرتدا وينتسب إلي الإسلام ظاهرا كما هو مشاهد فهو من الكافرين ؛ فلا عربية ولا قومية ولا عصبية - وقوله فيستبيح بيضتهم أي جماعتهم ، فنحمد الله أن أمة محمد صلي الله عليه وسلم مُؤمَّنة من إبادة العدو لها ومن تسلطهم عليها تسليطا عاما شاملا.

- ثم قال (حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا) فإذا حصل تقاتل بين المسلمين مع بعضهم فحينئذ يسلط الله عليهم عدوهم لكن لن يكون تسلطا عاما كما تقدم.

- وقول الله سبحانه أنه إذا قضي قضاء فإنه لا يرد المراد به القضاء الكوني لا الشرعي ، وقد سبق الفرق بينهما فيما تقدم .

٦) ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: "وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلي يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون؛ كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

- والأئمة المضلون يدخل فيهم الحكام ، وعلماء الضلالة ، وقد صح عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه أنه قال: (ثلاثٌ يَهدِمْنَ الدِّينَ: زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ مُنافِقٍ بالقُرآنِ، وأئمَّةٌ مُضِلُّونَ) ، وقال معاذ رضي الله عنه كما عند أبي داوود بسند صححه الألباني ((وأُحَذِّرُكم زَيغةَ الحكيمِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قد يقولُ كَلِمةَ الضَّلالةِ على لِسانِ الحكيمِ، وقد يقولُ المنافِقُ كَلِمةَ الحَقِّ، قال: قُلتُ لِمُعاذٍ: ما يُدْريني رَحِمَك اللهُ أنَّ الحكيمَ قد يقولُ كَلِمةَ الضَّلالةِ، وأنَّ المنافِق قد يقولُ كَلِمةَ الحَقِّ؟ قال: بلى، اجتَنِبْ مِن كَلامِ الحكيمِ المُشتَهِراتِ التي يُقالُ لها: ما هذه؟! ولا يَثْنِيك ذلك عنه؛ فإنَّه لَعَلَّه أن يُراجِعَ ، وتَلَقَّ الحَقَّ إذا سَمِعْتَه، فإنَّ على الحَقِّ نُورًا)

- ولن يرفع السيف في الأمة بعد أن وقع في مقتل عثمان رضي الله عنه لكن يوجد حينا ويَخِفُّ حينا ، ورفعه يكون بنشر التوحيد بين الناس لأنه سبيل الرحمات ، مع الإعداد لإرهاب أعداء الله ، والله المستعان.

- وقوله حتي يلحق حي من أمتي بالمشركين يشمل سفر المسلمين إليهم وهو حرام لغير ضرورة وإلا فهو من أكبر أسباب الانتكاسات كما هو مشاهد ، ويشمل أيضا الردة والعياذ بالله ، وأنهم يفعلون فعلهم ويتبعون سننهم كبناء المساجد علي القبور وعبادة الصالحين من الأموات، ويشمل الحديث مشابهتهم للمشركين في عاداته وتقاليدهم ولباسهم وأخلاقهم وغيرها.

- والكذابون الثلاثون منهم المختار مدعي النبوة ، ومن العجب العجاب أنه ظهر في آخر عهد الصحابة رضي الله عنهم و يدعي الإيمان بالنبي صلي الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء ومع ذلك يدعي النبوة بل يتبعه علي ذلك فئام ! من أناس علي ذلك نعوذ بالله من الفتن.

- والفئام أي الجماعات والأمة المرادة هنا أمة الإجابة كما تقدم لا أمة الدعوة ؛ فإن الكفار لا يزالون عابدين الأوثان والصالحين والأنبياء وغيرهم .

- ومحمد - صلي الله عليه وسلم - هو خاتم النبيين لا نبي بعده بل قال صلي الله عليه وسلم (والذي نفسي بيدِهِ لو أنَّ موسى كان حيًّا ما وسِعَه إلا أن يَتبَعني) بل إذا نزل عيسي عليه السلام حكم بشريعة محمد صلي الله عليه وسلم ويكون حينئذ من آحاد أمته فلا ينزل نبيا بل ينزل حكما مقسطا كما في الحديث (والَّذي نفسي بيدِهِ ليوشِكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكمًا مقسطًا فيَكسرُ الصَّليبَ ويقتلُ الخنزيرَ ويضعُ الجزيةَ ويفيضُ المالُ حتَّى لا يقبلَه أحدٌ) بل لا يتقدم ليؤم الناس في الصلاة وإنما يقدم من أمة محمد صلي الله عليه وسلم من يصلي به كما أخبر صلي الله عليه وسلم (لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ إلى يَومِ القِيامَةِ، قالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فيَقولُ أمِيرُهُمْ: تَعالَ صَلِّ لَنا، فيَقولُ: لا، إنَّ بَعْضَكُمْ علَى بَعْضٍ أُمَراءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هذِه الأُمَّةَ) فيكون عيسي هو أفضل أمة محمد صلي الله عليه وسلم من آخرها ، ويكون أبو بكر رضي الله عنه أفضلها من أولها.

- ولا تزال طائفة من أمة رسولنا صلي الله عليه وسلم منصورة علي الحق لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم وإن وافقهم لكن لم ينصرهم ، فيا عبد الله إن لم تستطع أن تنصر السنة بنفسك فانصر من ينصرها ولا تكن إمعة ولا مثبطا ، وهذه الطائفة هم أهل السنة والجماعة كما بينت ذلك تفصيلا في كتابي اللالئ المنتظمة فراجعه للأهمية .

- وقوله حتي تقوم الساعة لا يعارض قوله في الحديث السابق (يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَن في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ، فَيَبْقَى مَن لا خَيْرَ فِيهِ) وقوله (لا تقوم الساعة إلا علي شرار الخلق) إذ المراد حتي تقوم ساعتهم أي حتي يموتوا لأن من مات فقد قامت ساعته

قال في ذلك ابن تيمية في موضع من الفتاوي (كما إنه قد أراد بلفظ القيامة موت الإنسان، كما في قول المغيرة بن شعبة: أيها الناس إنكم تقولون القيامة القيامة، وإنه من مات فقد قامت قيامته) كما في حديث عائشة عند مسلم (كانَ الأعْرَابُ إذَا قَدِمُوا علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَنَظَرَ إلى أَحْدَثِ إنْسَانٍ منهمْ، فَقالَ: إنْ يَعِشْ هذا، لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ، قَامَتْ علَيْكُم سَاعَتُكُمْ).

أو يكون المراد بقوله (حتي تقوم الساعة) قرب قيام الساعة .

24) باب ما جاء في السحر

- مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف – رحمه الله تعالي - أن أمة النبي - صلي الله عليه وسلم – التي سبق أنه المراد بها أمة الإجابة - منها من يقع في الشرك أخذ يضرب علي ذلك أمثلة من الشرك الأكبر والأصغر وبدأ بالسحر ؛ لعظيم ضرره وخطره ، وهو من الكفر الأكبر بالله سبحانه.

- ومعني السحر في اللغة : ما خفي ولطف سببه ودق.

وفي الشرع : هو أقوال وأفعال مخصوصة وتصرفات مريبة يتوصل بها الساحر إلي أمور خارقة للعادة تؤثر في البدن ، أوالعقل ، وتُخيِّل للعين أمورا غير حقيقية ، وقد يميت المسحور ، يجمعها العقد ، والعزائم ، والنفث .

قال ابن قدامة في الكافي (٦٥/٤):

((عزائم ورقى وعُقَد يؤثر في القلوب والأبدان، فيُمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه)) انتهي.

وقال في المغني (٢٨/٩):

((هو عُقَد ورقى وكلام يتكلم به ، أو يكتبه ، أو يعمل شيئا في بدن المسحور أو قلبه ، أو عقله ، من غير مباشرة له . وله حقيقة ، فمنه ما يقتل ، وما يمرض ، ويأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما إلى الآخر ، أو يخبب بين اثنين)) انتهي .

- والسحر حقيقي ، دلَّ علي ذلك الكتاب والسنة والإجماع:

أما من الكتاب فقد قال تعالي (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) ووجه الدلالة من الاية علي أن السحر له حقيقة أنه يُتعَلَمَّ ، وأنه لو لم يكن له حقيقة لما أثر - بإذن الله - بين الزوج وزوجته.

وقال سبحانه (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد) أي : ومن شر الساحرات اللاتي ينفثن بريقهن فيما يعقدن من العُقَد بقصد السحر.

وأما من السنة فقد صحَّ عند النسائيّ وغيره من حديث زيد بن أرقم قال ((سَحَرَ النبيَّ رجلٌ مِن اليهودِ ، فاشتكى لذلك أيامًا ، فأتاه جبريلُ فقال : إن رجلًا مِن اليهودِ سَحَرَك ، عَقَدَ لك عُقَدًا في بِئْرِ كذا وكذا، فأَرسَلَ رسولُ اللهِ فاستخْرَجوها ، فجِيءَ بهم، فقام رسولُ اللهِ كأنما نَشِطَ مِن عِقالٍ)).

وعند البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها -

((مَكَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَذَا وكَذَا، يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّه يَأْتي أهْلَهُ ولَا يَأْتِي، قالَتْ عَائِشَةُ: فَقالَ لي ذَاتَ يَومٍ: يا عَائِشَةُ، إنَّ اللَّهَ أفْتَانِي في أمْرٍ اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ: أتَانِي رَجُلَانِ، فَجَلَسَ أحَدُهُما عِنْدَ رِجْلَيَّ والآخَرُ عِنْدَ رَأْسِي، فَقالَ الذي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: ما بَالُ الرَّجُلِ؟ قالَ: مَطْبُوبٌ، يَعْنِي مَسْحُورًا، قالَ: ومَن طَبَّهُ؟ قالَ: لَبِيدُ بنُ أعْصَمَ، قالَ: وفيمَ؟ قالَ: في جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ في مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ - يعني في شيء من شعره عليه الصلاة والسلام - ، تَحْتَ رَعُوفَةٍ في بئْرِ ذَرْوَانَ فَجَاءَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: هذِه البِئْرُ الَّتي أُرِيتُهَا، كَأنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، وكَأنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ فأمَرَ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَأُخْرِجَ، قالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ فَهَلَّا، تَعْنِي تَنَشَّرْتَ؟ فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا اللَّهُ فقَدْ شَفَانِي، وأَمَّا أنَا فأكْرَهُ أنْ أُثِيرَ علَى النَّاسِ شَرًّا قالَتْ: ولَبِيدُ بنُ أعْصَمَ، رَجُلٌ مِن بَنِي زُرَيْقٍ، حَلِيفٌ لِيَهُودَ)).

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ((من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر))

فكما أن للسم حقيقة لا تنكر ويكون التمر من أسباب الوقاية منه بإذن الله فكذلك السحر إلا أن السحر مرض علاجه الرقية الشرعية وسيأتي مزيد بيان في باب النشرة إن شاء الله .

وحقيقة السحر ثابتة بالإجماع أيضا كما قال ابن هبيرة في الإفصاح ((أجمع علي أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة قال لا حقيقة له عنده)) انتهي.

وهو ثابت أيضا بالحس وقد تواترت أخبار الناس بوجوده بما لا يمكن دفعه .

- والحكمة من سحره - صلي الله عليه وسلم - أن نعلم أنه بشر من البشر وإن كان أفضلهم وأشرفهم وأكرمهم عند الله جل وعلا ، لكنه يصيبه ما يصيبنا ؛ فلا يصلح أن يكون إلها تصرف له العبادات ، وكيف ! وهو الذي قضي عمره كله يحذر من ذلك كما سبق في الأبواب وكما سيأتي أيضا .
- ولم يؤثر سحره علي تبليغ رسالة الله وشريعته لخلقه ، وإنما كان سحره في أنه يخيل إليه أنه يأتي أهله ، ولا يأتيهم .

قال ابن القيم في زاد المعاد (4/124) :

((قد أنكر هذا طائفة من الناس ، وقالوا : لا يجوز هذا عليه ، وظنُّوه نقصاً وعيباً ، وليس الأمر كما زعموا ، بل هو من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض ، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (سُحِر رسول الله حتى إن كان ليخيَّل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن ، وذلك أشد ما يكون من السحر) قال القاضي عياض : والسحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل ، يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكر ، ولا يَقدح في نبوته.

وأما كونه يخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله : فليس في هذا ما يُدخل عليه داخلة في شيء من صدقه ؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما يجوز أن يطرأ عليه في أمر دنياه التي لم يُبعث لسببها ، ولا فُضِّل من أجلها ، وهو فيها عُرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أنه يخيَّل إليه مِن أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان)) **انتهى** .

- وللسحر أنواع كثيرة ، منها:

أولا :

سحر يتقرب به الساحر للشيطان للإضرار بالخلق ، وهذا كفر أكبر ظاهر ، وهو كفعل عبدة الشيطان.

ثانيا:

سحر يستعان فيه بالشيطان للعطف والإضرار بالخلق ، وهذا أيضا حكمه كسابقه.

ثالثا :

سحر بالأدوية والتركيبات ؛ فليس فيه رقي ولا نفث ولا عقد - والنفث شيء دون التفل وفوق النفخ - ، وسمي سحرا لخفائه وإلا فليس هو من السحر الشرعي المكفر لكنه سحر بمعناه اللغوي المتقدم ، وأما حكمه فإن كان بمادة مسكرة فحرام وكبيرة من الكبائر ، وإن كانت مضرة غير مسكرة فحرام كذلك ، وإن كانت المادة مخدرة لمجرد العلاج فالوسائل لها أحكام المقاصد وليس هو من السحر المكفر وانما هو سحر في اللغة لخفائه ودقته ، إلا إن نفث فيه أو تمتم عليه فيلحق بما قبله فيكون كفرا.

رابعا:

السحر التخييلي : وهو تمويه وحيل توهم الناظر إليها أمورا بحركات وأحوال يفعلها الساحر يظن من يراها أنها هي المؤثرة و يكون لها أسباب أخري خفية ، وهذا النوع في الحقيقة سحر حقيقي إلا أنه يفرق بينه وبين السحر الحقيقي بأن الحقيقي يؤثر في البدن ، والتخييلي لا يؤثر إلا في البصر ، لكن كله حقيقي باعتبار أنه لا يكون إلا بعبادة الجن أو بالاستعانة بهم - وقد سبق في الجزء الأول في باب الاستغاثة والاستعاذة أن طلبها من الجن شرك لأنه غائب - ، وإلا فهو ليس من فعل أهل المروءة إن وجد هذا ، ومن أدلة هذا النوع سحر قوم فرعون ، قال الله عز وجل (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعي) ، وقوله سبحانه (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا

بسحر عظيم) ، فسحر قوم فرعون من هذا النوع ، وأما من جهة حكمه فإن وجد منه ما فيه إضرار بالخلق دون استعانة بالشياطين ولا التقرب إليهم فحرام ، وإن كان فيه استعانة بالجن فكفر ، وإن كان مجرد لعب دون تقرب إلي الشياطين ولا الاستعانة بهم - إن وجد هذا - فهو قادح في المروءة .

- وأنكر القدرية والمعتزلة وجود السحر الحقيقي وحصروا السحر في التخييلي ، وكذلك أبو حنيفة والجصاص من الحنفية ، وابن حزم من الظاهرية ، والبغوي من الشافعية ، وما سبق من أدلة القران والسنة التي نصت علي وجوده يرد هذا ، وقد يكون مقصودهم نفي انقلاب حقائق الذوات إلي ذوات مختلفة كقلب الحيوان إلي إنسان أو العكس ونحو ذلك ، فإن كان هذا مقصود أبي حنيفة ، والبغوي ونحوه من أهل السنة مع الإقرار بحقيقة السحر وتأثيره بالمرض وغيره فهذا حق وهو الذي قد يحمل عليه كلامهم إحسانا للظن بهم لا سيما والقران والحديث ينص علي وجوده .

- قال ابن الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان:

((اعلم أن العلماء اختلفوا في تحقيق القدر الذي يمكن أن يبلغه تأثير السحر في المسحور ، واعلم أن لهذه المسألة واسطة وطرفين : طرف لا خلاف في أن تأثير السحر يبلغه كالتفريق بين الرجل وامرأته ، وكالمرض الذي يصيب المسحور من السحر ونحو ذلك ، ودليل ذلك القرآن ، والسنة الصحيحة - ثم أورد ما أوردته لك من الأدلة ثم قال - وطرف لا خلاف في أن تأثير السحر لا يمكن أن يبلغه كإحياء الموتى ، وفلق البحر ونحو ذلك.

قال القرطبي في تفسيره : أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد ، والقمل ، والضفادع ، وفلق البحر ، وقلب العصا ، وإحياء الموتى ، وإنطاق العجماء ، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون لا يفعله الله عند إرادة الساحر ، قال القاضي أبو بكر بن الطيب : وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه انتهى كلام القرطبي.

وأما الواسطة فهي محل خلاف بين العلماء ، وهي هل يجوز أن ينقلب بالسحر الإنسان حمارا مثلا ، والحمار إنسانا ؟ وهل يصح أن يطير الساحر في الهواء ، وأن يستدق حتى يدخل من كوة ضيقة

وينتصب على رأس قصبة ، ويجري على خيط مستدق ، ويمشي على الماء ، ويركب الكلب ونحو ذلك ، فبعض الناس يجيز هذا ، وجزم بجوازه الفخر الرازي في تفسيره ، وكذلك صاحب رشد الغافل ، وغيرهما ، وبعضهم يمنع مثل هذا.

قال مقيده ـ عفا الله عنه وغفر له ـ : أما بالنسبة إلى أن الله قادر على أن يفعل جميع ذلك ، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب وإن لم تكن هناك مناسبة عقلية بين السبب ، والمسبب كما قدمناه مستوفى في سورة " مريم " فلا مانع من ذلك ، والله جل وعلا يقول وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله وأما بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل فلم يقم عليه دليل مقنع . لأن غالب ما يستدل عليه به قائله حكايات لم تثبت عن عدول ، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة ، والأخذ بالعيون ، لا قلب الحقيقة مثلا إلى حقيقة أخرى ، وهذا هو الأظهر عندي ، والله تعالى أعلم)) **انتهي** .

- والسحر كفر ، والساحر ، ومعلم السحر ، ومتعلمه وإن لم يعمل به ، والراضي به كلهم كفار ، والدليل قول الله عز وجل : (({ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))

وقال سبحانه ((ولا يفلح الساحر حيث أتي)) وباستقراء نصوص الكتاب والسنة صرح العلماء بأن نفي الفلاح لم يرد إلا في الكفر الأكبر ، غير أن الآية عامة بنفي الفلاح عن الساحر وعالمه ومتعلمه لأن من المتقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي تعم ، وهنا دخلت لا النافية علي المضارع وهو مؤول بنكرة والمراد لا فلاح للسحرة فأفادت هذه الصيغة عموم نفي الفلاح عنهم.

فبين سبحانه أن الساحر ، ومعلم السحر ومتعلمه وإن لم يعمل به كفار.

وصح عند النسائي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال ((من سحر فقد أشرك)) ، وأما دليل كفر الراضي بالسحر وإن لم يعمل به أو يتعلمه فقوله تعالي ((وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الاه يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا))

قال القرطبي في تفسيره :

((إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ) فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُمْ فَقَدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ، وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ). فَكُلُّ مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ مَعْصِيَةٍ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْوِزْرِ سَوَاءً، وَيَنْبَغِي أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَعَمِلُوا بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّكِيرِ عَلَيْهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ.)) **انتهي**.

وقال صلي الله عليه وسلم في كفر الراضي به ((ليس منا مَن تطيَّرَ أو تُطيِّرَ له أو تكهَّنَ أو تُكُهِّنَ له أو سَحَر أو سُحِرَ له)) أي سحر لأجله وهو راض وإن لم يتعلمه ولم يعمل هو به ولكنه رضي به فطلبه .

قال ابن تيمية في المجموع :

(("فإنَّ منَ الرِّضا ما هو كفر؛ كرضا الكفار بالشِّرك، وقتْل الأنبياء، وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه؛ قال - تعالى -: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: 28]، فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "إن الخطيئة إذا عملت في الأرض، كان مَن غاب عنها ورضيها كمَن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها"، وقال - صلى الله عليه وسلم -: "سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع هلك"، وقال - تعالى -: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 96] فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم، وقال - تعالى -

: {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة: 38]، فهذا رضًا قد ذَمَّه الله، وقال - تعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا} [يونس: 7]، فهذا أيضًا رضًا مذمومٌ، وسِوى هذا وهذا كثيرٌ، فمَن رضي بكفره وكُفْر غيره، وفِسْقه وفسْق غيره، ومعاصيه ومعاصي غيره - فليس هو متَّبعًا لرضا الله، ولا هو مؤمن بالله، بل هو مسخط لربِّه، وربُّه غضبان عليه، لاعنٌ له، ذامٌّ له، متوعد له بالعقاب، وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون، إنما هي الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته، فمَن أمر أو استحب أو مدح الرضا، الذي يكرهه الله ويذمه، وينهى عنه ويعاقب أصحابه - فهو عدو لله، لا ولي لله، وهو يصد عن سبيل الله وطريقه، ليس بسالك لطريقه وسبيله")) **انتهي** .

- ومناطات كفر أولئك :

أنهم لم يكفروا بالطاغوت ؛ لأنهم يتبعون ما تتلوا الشياطين من السحر ولن يكون الا بطاعتهم في الكفر بالله والشرك به سبحانه ، وقد تقدم معني الكفر بالطاغوت في المقدمة ومواضع أخري من الجزء الأول ، ولو كانوا كافرين بالطاغوت لما رضوا بالسحر ولما تعلموه ولاعلموه ، ولهذا قال تعالي (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) ، قال السدي كما نقله عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (لما جاء محمد عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقران فنبذوا التوراة وأخذوا بسحر آصف وسحر هاروت وماروت) .

- قال الصابوني في عقيدة السلف ناقلا إجماع اهل السنة والجماعة :

((ويشهدون أن في الدنيا سحراً وسحرة، إلا أنهم لا يضرون أحداً إلا بإذن الله عز وجل، قال تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة:١٠٢]، ومن سحر منهم واستعمل السحر واعتقد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى فقد كفر بالله جل جلاله) **انتهي.**

- وقال ابن تيمية ((٦/٤٤١)):

((ويصدقون بأن في الدنيا سحرة ، وأن الساحر كافر كما قال الله وأن السحر كائن موجود في الدنيا))

١) وقول الله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ }

-قد سبق بيان ما في الآية ، وفي التفسير الميسر ((واتبع اليهود ما تُحَدِّث الشياطينُ به السحرةَ على عهد ملك سليمان بن داود. وما كفر سليمان وما تَعلَّم السِّحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علَّموا الناس السحر؛ إفسادًا لدينهم. وكذلك اتبع اليهود السِّحر الذي أُنزل على الملَكَين هاروت وماروت، بأرض «بابل» في «العراق»؛ امتحانًا وابتلاء من الله لعباده، وما يعلِّمُ الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذِّراه مِن تعلُّم السِّحر، ويقولا له: لا تكفر بتعلم السِّحر وطاعة الشياطين. فيتعلم الناس من الملكين ما يُحْدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا. ولا يستطيع السحرة أن يضرُّوا به أحدًا إلا بإذن الله وقضائه. وما يتعلم السحرة إلا شرًّا يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود، فشاع فيهم حتى فَضَّلوه على كتاب الله. ولقد علم اليهود أن من اختار السِّحر وترك الحق ما له في الآخرة مِن نصيب في الخير. ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم عِلْمٌ يثمر العملَ بما وُعِظوا به.)) انتهي .

٢) قوله {ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا} قال عمر: "الجبت السحر، والطاغوت الشيطان."

فذمهم الله ولعنهم علي فعل السحر.

قال ابن كثير :

((أَمَّا "الْجِبْتُ" فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ فَائِدٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: "الْجِبْتُ": السِّحْرُ، وَ "الطَّاغُوتُ": الشَّيْطَانُ.

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَالْحَسَنِ، وَعَطِيَّةَ: "الْجِبْتُ" الشَّيْطَانُ -زَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِالْحَبَشِيَّةِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: "الْجِبْتُ": الشِّرْكُ. وَعَنْهُ: "الْجِبْتُ": الأَصْنَامُ.)) **انتهي** .

٣) وقال جابر: "الطواغيت كهان كان ينْزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد."

- ومناسبة هذا الأثر للباب أن الطواغيت منهم إنس ومنهم جن ومن فعل السحر فهو طاغوت كافر.

٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. "

- والموبقات أي الكبائر المهلكات هلاكا دنيويا وأخرويا ، فهلاك من فعل شيئا من هذه الأمور في الدنيا يكون بظلمة في القلب فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه كما صح عن النبي صلي الله عليت وسلم فيما أخرجه مسلم وغيره ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا - أي تتكر الفتن وتكثر وتتقارب - فأي قلب أشربها - أي استقرت فيه - نكت فيه نكتة - أي نقطة - سوداء وأي قلب أنكرها - أي جاهد صاحب هذا القلب في دفعها بقوله وعمله واعتقاده - نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا- وهو حجر غاية في البياض كالمرمر - فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا - والربد لون بين السواد والغبرة وهو الرمادي - كالكوز مُجَخِّياً - أي كالإناء المنكوس علي رأسه لا يستقر فيه شيء - لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه ، فهذا عقابه في الدنيا وأما في الآخرة فجزاؤه جهنم ، وليس للكبائر عدد محدود وإنما ذكر في الحديث هذه السبع لأنها من أكبرها ، أو اعتبارا بحال السائل ، وجاء في مصنف عبد الرزاق وغيره: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعين أقرب .

- وذكر في الحديث السحر بعد الشرك مع أنه من الشرك كما سبق ، وذلك من باب ذكر الخاص بعد العام لبيان عظيم شره وخطره ، وإلا فقد يكون شركا أكبر إن كان فيه استعانة بالجن وصرف العبادة لهم ، أوطاعتهم في الكفر أو التقرب إليهم بالقرابين لينفذ سحره أو يعتقد أن الشيطان أو الساحر مؤثر

بذاته استقلالا ، ففي عذه الحالات ونحوها يكون كفرا أكبر ، وقد يكون محرما دون الشرك إن كان بالأدوية بقصد الإضرار فهي سحر لغة وإن لم تكن السحر الشرعي المكفر وهو الذي قال فيه الشافعي كما نقله الترمذي ((إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر فإذا عمل عملا دون الكفر فلم نر عليه قتلا)) .

- وقوله محصنات - بكسر الصاد وفتحها - أي العفيفات.

- وعلي ما سبق لا يكون السحر إلا حقيقيا ؛ لأن السحر التخييلي يكون تأثيره علي البصر لا البدن ولا المرض ولا التفرقة بين الزوجين ، لكنهم فرقوا بينهما من هذه الجهة.

٥) وعن جندب مرفوعا: "حد الساحر ضربه بالسيف" رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: "كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال: فقتلنا ثلاث سواحر."

وصح "عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت" وكذلك صح عن جندب قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

- أجمع الصحابة علي أن الساحر يقتل ؛ وقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلي الله عليه وسلم قال (من بدل دينه فاقتلوه) ، والساحر مرتد إن كان مسلما فيقتل لكفره وردته ، وإن كان كتابيا قتل أيضا لقول جندب البجلي ((حد الساحر ضربة بالسيف)) ، وقد استدل هنا المصنف علي إجماع الصحابة علي قتل السحرة بآثار صحيحة عن ثلاثة من الصحابة.

ونزيد علي هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم أربعة آخرين من الصحابة رضوان الله عليهم :

فقد صح في الموطأ وغيره أن حفصة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - قتلت جارية لها سحرتها ، وقد كانت دبرتها أي أعتقتها لكن بعد موتها ، فأمرت بها فقتلت ، وأنكر ذلك عليها عثمان - رضي الله عنه - ، فقال ابن عمر : ما تنكر على أم المؤمنين من امرأة سحرتها واعترفت ؟ فسكت عثمان.

ومحل إنكار عثمان رضي الله عنه أن كان أميرا للمؤمنين ، وإقامة الحدود يرجع فيها للحاكم ولا يفتات عليه ، لكن لما علم أنه جارية لها و أن السيد له أن يحد مملوكه بلا إذن حاكم فأقره عثمان رضي الله عنه ، فاجتمع قي هذا الحديث رأي ابن عمر وعثمان وحفصة رضي الله عنهم.

وثبت كذلك أن قَيْسَ بْنِ سَعْدٍ : قَتَلَ سَاحِرًا كما عند عبد الرزاق وابن عبد البر.

و قال ابن كثير -رحمه الله - في تفسيره : (وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيردّ إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين ، فلما كان الغدُ جاء مشتملاً على سيفه، وذهب الساحر يلعب لعبَه ذلك، فاخترط الرجل سيفَه فضرب عُنُق الساحر، وقال: إن كان صادقًا فليُحْيِ نفسه، ثم تلا قوله تعالى: [الأنبيَاء: ٣] {أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} ، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم) انتهي كلام ابن كثير.

ويقتل الساحر مطلقا ، فلم يرد عن الصحابة التفرقة بين الساحر المرتد والساحر الكتابي أو غيره ، ولم يفرقوا كذلك بين من يقتل بسحره ومن لا يقتل ، بل الأحاديث السابقة عامة لم يستثنوا منها حالة دون أخري ، ولم يرد عنهم استتابتهم كذلك ؛ فإن الساحر لا يؤتمن و لا يصدق في توبته وإلا فسيفتح علي الناس باب شر عظيم.

- وأما ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها ما قتلت جاريتها الساحرة فمحمول علي أنها قد تكون قتلتها بعد تعزيرها ببيعها لمن عرف بسوء التعامل مع العبيد كما في مسند أحمد بسند صحيح ((
عن عمرة قالت: اشتكت عائشة فطال شكواها، فقدم إنسان المدينة يتطبب، فذهب بنو أخيها يسألونه عن وجعها، فقال: والله إنكم تنعتون نعت امرأة مطبوبة، قال: هذه امرأة مسحورة سحرتها جارية لها، قالت: نعم، أردت أن تموتي فأعتق، قال: وكانت مدبرة، قالت: "بيعوها في أشد العرب ملكة، واجعلوا ثمنها في مثلها")) ، ويحتمل أنها كانت جاهلة بالحكم وأنها لم تسحر بنفسها ، ولا يظن بالصحابة مخالفة أمر الرسول صلي الله عليه وسلم بقتل من بدل دينه وارتد كالسحرة.

- والموبقات أي الكبائر المهلكات ، وليست محدودة بعدد وإنما هي ما نهي عنه علي وجه التعظيم ، وأما من عرفها بأنها ما رتب عليه حد في الدنيا ، أو لعن صاحبها شرعا ، أو تبرأ النبي من فاعلها بقوله ليس منا ، أو نفي عنه الإيمان فهذه دلائل التعظيم ولا تقتصر الكبائر عليها ؛ ودليل ذلك قوله تعالي (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) والمراد بكبائر ما نهينا عنه ما عظم النهي عنه ، والمتقرر في الأصول أن اللفظ محمول علي الحقيقة الشرعية إن لم يكن ، فيحمل علي العرفي ، فاللغوي ، ولم يحد الشرع الكبيرة ، ولم يتعارف النبي صلي الله عليت وسلم علي حد يخصها ، ولهذا تحمل علي المعني اللغوي وهو ما عظم النهي عنه لأن الكبير هو العظيم والكبائر العظائم ، ومن عرَّفها بأنها ما رتب عليه حد ونحو ذلك فهذه دلائل التعظيم وليس المراد حصر الكبائر فيها .

25) باب بيان شيء من أنواع السحر

- هذا الباب أخص من الباب السابق ، ومناسبته له ذكر أنواع من السحر ، وبيان أن منها ما هو كفر أكبر ومنها ما هو كفر أصغر كالطيرة ، وإن كانت كلها تسمي سحرا لكن منها السحر اللغوي الذي هو الخفاء والدقة ومنها ما هو السحر الشرعي الذي فيه التقرب للشياطين للإضرار بالخلق أو ادعاء الغيب كالطرق والتنجيم ونحوها .

1) قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) .

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض.

والجبت، قال: الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، المسند منه.

- العيافة : زجر الطير والحدس والظن بما سيكون ، والطرق : قيل هو التنجيم كقراءة الفنجان وضرب الأرض بالحصي وأشباه هذه الأمور لمعرفة ما سيكون ،وهم لا يعلمون الغيب بذاتها وإنما الشياطين تأتي إليهم بما يريدون مقابل الكفر بالله والتقرب إليهم بالعبادة فإن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وقد يكون ذلك بالوسوسة ليزدادوا منها وإن لم يتقربوا إلي الشياطين فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم ، وأما الطيرة فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم علي ما سيأتي بيانه في بابها ، وهذه الثلاثة من الجبت أي السحر علي ما فسرنا به السحر سابقا ؛ ذلك لخفائها وتأثيرها علي القلوب إقبالا وإدبارا ، وقيل الجبت الجبس الذي لا خير فيه ، ثم استعير بما يعبد من دون الله وللساحر والسحر.

ومن هذه الثلاثة ما هو شرك أكبر كالطرق لادعاء العلم بالغيب ، ولما فيها من التقرب للشياطين ولتكذيب مثل قوله تعالي (لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) ، ومنها ما هو شرك

أصغر كالطيرة إن اعتقد المتطير أنها سبب وإلا فشرك أكبر إن اعتقد استقلالها في التأثير ، والعيافة هي الطيرة لكن فرق بينهما النبي صلي الله عليه وسلم لأن العيافة هي الفعل من زجر الطير ، والطيرة هي أثر الفعل من التشاؤم ، ولأن العيافة خاصة بالطير ؛ فقد كانوا يستدلون بالعقاب علي العقاب وبالغراب علي الغربة وبالهدهد علي الهدي فيتفاءلون ، أو يتشاءمون بالطيور بأصواتها وألوانها وأشكالها ، وأما الطيرة فخاصة بالتشاؤم وأعم من جهة المتطير به فقد يكون بالطيور أو الإنسان أو غيرها ، فبين الطيرة والعيافة عموم وخصوص من وجه إذ يشتركان في التشاؤم بالطير وتختص العيافة بالتفاؤل وتختص الطيرة بالتشاؤم بغير الطير.

- وقوله صلي الله عليه وسلم (من الجبت) يحتمل أن تكون من هنا تبعيضية أي من جملة السحر والشرك ، ويحتمل أنها ابتدائية أي ناشئة من السحر ، وتصلح من الجارة لكلا المعنيين ، قال ابن مالك في الألفية :

بعض وبين وابتدأ في الأمكنة : بمن ةقد تاتي لبدء الأزمنة.

والراجح أنها تبعيضية ؛ إذ قدسبق قول عمر رضي الله عنه أن الجبت هو السحر ، فهذه بعض أنواعه ، ولا يختلف حكمها الشرعي سواء قلنا أنها تبعيضية أو ابتدائية.

- ورنة الشيطان قيل هي وسوسته ، وقيل المزامير وأصوات الملاهي لأنه الداعي إليها ، وقيل كل كلام باطل أو كفر وشرك ، وتفسير الحسن للجبت برنة الشيطان هو تفسير الشيء ببعض أفراده ، وقيل الجبت هو الشيطان.

2) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ:

((من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد) رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

- اقتبس علم النجوم أي تعلمه ، والاقتباس هو التعلم شيئا فشيئا ، وقوله (زاد ما زاد) أي كلما ازداد من تعلمه ازداد من السحر فمقل ومستكثر.

وتعلم علم النجوم علي خمسة أنواع باعتبار حكمه:

الأول:

ليستدل به علي الجهات والقبلة وهو علم التيسير لا التأثير ، ومنه قوله تعالي (وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

الثاني :

للاستدلال بها علي أزمنة الفصول السنوية وهذا كذلك جائز ، قال في القول المفيد (الصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر لأنه لا شرك فيها ، إلا أن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد ، وأنها هي الجالبة لذلك فهذا نوع من الشرك ، أما مجرد معرفة الوقت بها هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء فهذا لا بأس به).

الثالث :

معرفة ما سيكون في المستقبل ومنه قراءة الأبراج ومعرفة الخطوط ، وهذا كفر أكبر ولو ادعي المدعي أنهم لا يعلمونه استقلالا وإنما بأسباب جعلها الله أسبابا للعلم بما سيكون **!!** ، بل حكم ذلك هو الكفر الأكبر لادعاء علم الغيب الذي نفاه الله تعالي في عدة آيات في كتابه منها قوله تعالي (إنما الغيب لله) ، وقوله سبحانه (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) ، وقوله عز من قائل (عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا)

قال في التيسير:

(الاستدلال علي الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك ويقول إن ذلك بتقدير الله ومشيئته ، فلا ريب في تحريم ذلك ، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك ، وينبغي أن يقطع بكفره لأنها دعوي لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالي بعلمه بما لا يدل عليه).

ومع الأسف بعض الشراح يدعي أنه من الكفر الأصغر **!** مع أن الايات في ذلك جلية ، فانتبه لهذا.

الرابع :

اعتقاد أنها مؤثرة بذاتها ، وهذا واضح أنه كفر أكبر.

الخامس :

اعتقاد أنها مسببات يعلم بها ما حصل من موت شريف أو وجيه ، وأنها مسببة عن ذلك فهذا شرك أصغر ؛ وليس أكبر لأنه ليس فيه صرف لعبادة لغير الله ولا اعتقاد أنها مؤثرة بذاتها فليس شركا في الربوبية ولا العبادة لكنه أصغر لتعلق القلب بما لا حقيقة له أصلا ، وقد حذر النبي صلي الله عليه وسلم من ذلك كما في حديث أبي موسي الأشعري الذي أخرجه البخاري في صحيحه فقال

((خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَزِعًا، يَخْشَى أنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فأتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بأَطْوَلِ قِيامٍ ورُكُوعٍ وسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وقالَ: هذِه الآياتُ الَّتي يُرْسِلُ اللَّهُ، لا تَكُونُ لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، ولَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ به عِبادَهُ، فإذا رَأَيْتُمْ شيئًا مِن ذلكَ، فافْزَعُوا إلى ذِكْرِهِ ودُعائِهِ واسْتِغْفارِه).

فإن قيل ولم لم تعتبروا الحالة الثالثة من ذلك ورددتم قول من قال أنه ان اعتقد أنها أسباب للعلم بالغيب لا باستقلال أنه أصغر أيضا قلنا لأن كفره هذا باعتباره معتقدا إمكان علم الغيب وهذا تكذيب لآي القران التي فيها نفي علم الغيب عن غير الله سبحانه وتعالي ،**وكذا نقول في حالة كفر زائر الكهان ولو اعتقد أنهم لا يعلمون الغيب استقلالا وإنما بمقدمات لنفس السبب السابق الذي ذكرته ، فافهم هذا.**

وفي مجمل تفصيل الحالات السابقة في علم النجوم قال في القول المفيد كلاما جامعا في ذلك ، فقال :

((وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

أولاً : علم التأثير.

ثانياً : علم التسيير.

فأما علم التأثير فهو على ثلاثة أقسام:

1- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور فهذا شرك أكبر ؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً فهو مشركٌ شركاً أكبر ، وقد جعل المخلوق المُسَخَّر خالقاً مُسَخِراً .

2 -أن يجعلها سبباً يدَّعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا . كأن يقول : هذا الإنسان ستكون حياته شقاء ؛ لأنه ولد في النجم الفلاني ، وهذا حياته ستكون سعيدة ؛ لأنه ولد في النجم الفلاني . فهذا الشخص اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب وادعاء علم الغيب كفرٌ مُخرجٌ عن الملة لأن الله يقول : قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله (النمل 65)، وهذا من أقوى أنواع الحصر لأنه حصرٌ بالنفي والاستثناء ، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

3 - أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر فهذا شرك أصغر ، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه، والقاعدة أن من اعتقد شيئا سببا لشيء ، ولم يجعله الله كذلك فقد تعدى على الله لأن مسبب الأسباب هو الله وحده . كمن يستشفي بربط خيط ما ، ويقول أنا أعتقد أن الشفاء بيد الله وهذا الخيط هو مجرد سبب فنقول له : نجوت من الشرك الأكبر ، ووقعت في الشرك الأصغر لأن الله لم يجعل الخيط سببا ظاهرا للشفاء ، وأنت بفعلك هذا قد اعتديت على مقام الربوبية بجعل شيء سببا لشيء والله لم يجعله كذلك، وهكذا من جعل النجوم سببا لنزول المطر وليست كذلك والدليل ما أخرجه البخاري (801) ومسلم (104) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى

النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ " فحكم على من نسب المطر إلى النجوم نسبة سبب.

الثاني : علم التسيير . وهو على قسمين:

1 -أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب ، وإذا كان يُعين على مصالح دينية واجبة كان تعلُمُهَا واجباً كأن يستدل بالنجوم على جهة القبلة.

2 -أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية ، فهذا لا بأس به وهو نوعان:

الأول : أن يستدل بها على الجهات ، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً ، والجدي – وهو قريب منه – يدور حوله شمالاً ... فهذا جائز ، قال تعالى : وعلامات وبالنجم هم يهتدون (النحل 16).

الثاني : أن يستدل بها على الفصول ، وهو ما يُعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف ، وأباحه آخرون ، والصحيح أنه جائز وليس فيه كراهه ؛ لأنه لا شرك فيه إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد ، وأنها هي الجالبة لذلك فهذا نوعٌ من الشرك ، أما مجرد معرفة الوقت بها هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء فهذا لا بأس به) انتهي كلامه.

٣) وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وُكِل إليه) .

- النفث هو النفخ مع ريق دون التفل ، والنفث فعل الساحر فإن السحر يكون بجمع قاذورات وأوراق وربطها ثم ينفث فيها الساحر مستعينا علي ذلك بالشياطين الذين يشترطون عليه الكفر لإنفاذ سحره الذي طلبه ، ولن يضر ذلك إلا بإذن الله الكوني قال تعالي (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون).

- والسحر بالنفث والعقد أخبث أنواع السحر ، وهكذا سَحر النبيَّ صلي الله عليه وسلم لبيدُ بنُ الأعصم ، وقد تقدَّم أن الساحر ، ومتعلم الساحر ، وطالب السحر ، والراضي به كفار كفرا أكبر مخرجا من الملة وتقدمت مناطات هذا الحكم.

- وقوله ومن تعلق شيئا وكل إليه

قال في التيسير:

((من توكل على غير الله كائنًا من كان وكل إليه، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه، أو ركن إلى مخلوق يدبره، أجرى الله تعالى له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عيانًا)

٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة، القالة بين الناس) رواه مسلم .

- العضه بكسر العين وفتح الضاد بمعني التفريق علي زنة عدة ، أو فتح العين مع سكون الضاد بمعني القطع ، فجمعت بين القطع والتفريق ، وهي كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم النميمة القالة بين الناس سواء كان ذلك بالقول أو الإشارة أو الكتابة أو غيرها ما دامت النتيجة واحدة وهي الإفساد بين الناس ، وعن يحيي بن أبي كثير كما عند أبي نعيم في الحلية أنه قال (يفسد النمام في ليلة ما لا يفسدها الساحر في شهر).

- والنميمة تشبه السحر ؛ لأن النمام يخفي سعيه عن كلا الطرفين ، وتشبه السحر أيضا في طريقته وخفائه لكن لا في حكمه إذ السحر كفر أكبر وأما النميمة فكبيرة دون الكفر لكنها سحر من حيث المعني اللغوي لا السحر الشرعي المكفر الذي هو عقد ونفث وتمتمة ، وتشبه السحر في أثره أيضا

لأنه يفرق بين الأحبة وقد قال الرسول صلي الله عليه وسلم كما عند البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني (شرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب).

٥) ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: (إن من البيان لسحرا).

- المراد هنا السحر بمعناه اللغوي لا الشرعي المكفر ، والمراد الفصاحة والبلاغة ؛ فإن لها ما لها من تأثير في النفوس ، ولهذا الحديث قصة عند البخاري وهي أن رجلين خطبا إلي النبي صلي الله عليه وسلم فعجب الناس لبيانهما فقال صلي الله عليه وسلم ما قال.

لكن هل أراد الرسول صلي الله عليه وسلم المدح أم الذم ؟

من نظر إلي أن السحر مذموم شرعا كما سبق قال أراد ذمّه ، ومن نظر إلي الحال والواقعة قال أراد مدحه ، وليس المراد كل البيان بل بعضه ولهذا أتي بمن التبعيضية وورد في رواية أبي داوود (إن بعض البيان لسحر).

- شبهة وردها :

في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك .

يستدل به الجهال علي جواز الطرق ، مع أنه سبق أنه من الجبت ، والجواب :

أن في الحديث ما يرد قولهم الفاسد ؛ إذ ذاك فعل نبي يوحِي الله إليه ولاحقّ فيه لأحد بعده ، غير أن هذا الحديث للمتأمل زجر من رسولنا الكريم - عليه الصلاة والسلام - لمن يفعل ذلك ؛ إذ علقه علي موافقة خط ذاك النبي وهيهات هيهات **!**

قال الخطابي في معالم السنن:

((يحتمل أن يكون معناه الزجر عنه ؛ إذ كان من بعده لا يوافق خطه ولا ينال حظه من الصواب ؛ لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعا في نيله)) انتهي.

وبين ذلك كذلك النووي في شرح مسلم فقال (٢٣/٥):

((معناه من وافق خطه فهو مباح له ولكن لا طريق لنا إلي العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح والمقصود أنه حرام ؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين بها)).

وقال القاضي عياض أن الحديث منسوخ ، وقال ابن حجر الهيتمي كما في الفتاوي الحديثية ((تعلمه وتعليمه حرام شديد الحرمة وكذا فعله لما فيه من إيهام العوام أن فاعله يشارك الله في غيبه وما استأثر بمعرفته - قلت محمود : الصحيح أن يقال بعلمه لا بمعرفته لأن المعرفة لا تكون في الغالب الا بعد جهل ويعقبها نسيان بخلاف العلم لا سيما وصفات الله توقيفية ولم يرد وصفه سبحانه بالمعرفة فالله يتصف بالعلم لا بالمعرفة -) انتهي .

26) باب ما جاء في الكهان ونحوهم

- مناسبة الباب لما قبله:

بيان من يشارك السحرة في التقرب للشياطين لادعاء علم الغيب والمستقبل ، كالسحرة الذين يذهب الناس إليهم لقضاء ما يريدون ، ولأن من الناس من يذهب إلي الكهان والعرافين لفكّ السحر وحله عن المسحور والنشرة التي سيأتي الكلام عنها في الباب القادم فناسب هنا أن يقدم ببيان حقيقة العرّافين والكُهّان.

- والفرق بين الكاهن والعراف أن العراف يدعي معرفة أماكن الغائبات بمقدمات لا توصل لذلك عادة - خلافا للقافة الذين يقتفون أثر الضالة لإيجادها - وإنما يكون باستعانته بالجن والشياطين.

وأما الكاهن فهو الذي يدعي معرفة المستقبل والغيب وما في الضمير.

وبعض العلماء يسوي بينهما لاسيما أن كليهما يدعي معرفة الغيب ، وكلاهما يستعينون بالجن ويتقربون للشياطين ،وقيل هي من الألفاظ التي إذا افترقت اجتمعت وإذا اجتمعت افترقت في المعني علي النحو السابق.

قال البغوي كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر : (العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك) ، وقيل: هو الكاهن .

والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.
وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – كما عند عبد الرزاق في المصنف بسند صحيح: في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم -: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)، وهذا يسمي بعلم الحروف، حيث تقطع وتقسم الحروف على مقاطع (أبجد) (هوز) (حطي) (كلمن) (سعفص) (قرشت) (ثخذ) (ضظغ)، فيجعلون الألف رقم واحد والباء اثنين، إلى نهاية الحرف العاشر، ثم يبدءون بالكاف علي أنه العشرون واللام ثلاثون، وهكذا إلى الشين مائة والراء مائتان، إلى أن تتم هذه

الحروف ، فيكون الغين ألْفًا، وتعلم أبا جاد وكتابته إن كان بقصد الاستفادة منها علي الترقيم والتأريخ ونحو ذلك فهو جائز ، لكن محل كلام ابن عباس فيمن يستعمله من الكهان والمنجمين لمعرفة الغيبيات فهذا شرك أكبر علي ما سيأتي .

- وهم كفار لعدة مناطات منها:

الأول:

ادعائهم علم الغيب والقدرة علي الوصول إليه مع أن الله سبحانه قال (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) ، وقال عز وجل (فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين) ، وقال تعالي (وما كان الله ليطلعكم علي الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) ، وقال عز من قائل (عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا).

الثاني :

أنه لا يمكن أن يتوصلوا إلي ذلك إلا بالتقرب للشياطين بالشرك والكفر ، قال تعالي (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ، وقال سبحانه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) ، وقال سبحانه (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير).

الثالث:

ولأنه لم يكفر بالطاغوت وقد تقدم أنه شرط من شروط صحة لا إله إلا الله من قائلها بالآيات والأحاديث.

١ ،٢ ،٣) الدليل الأول والثاني والثالث من أدلة الباب

روى مسلم في صحيحه، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرَّافا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوما) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه أبو داود .

وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة: (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)، ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفا .

- نسب المصنف الحديث الأول إلي مسلم وهذا خطأ ؛ فإن الذي عند مسلم في صحيحه بدون كلمة (فصدقه) ، وإنما وردت هذه الزيادة في مسند أحمد وهي شاذة متنا وسندا ؛ ولأنه إن صدقه كفر ، فتجيء الرواية الأخري الصحيحة التي عند مسلم (من أتي عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما) ،فيكون المعني أنه إن صدقه كفر هو والعراف إذ لا يعلم الغيب إلا الله ، وإن لم يصدقه لكن سأله ليسمع منه فقط فهذا جزاؤه ألا تقبل له صلاة أربعين يوما ، والمراد بنفي القبول نفي الجزاء لا نفي الإجزاء ؛ فإنه مأمور بأداء الصلوات وجوبا ويسقط عنه الواجب بذلك إلا أنه لا يثاب عليها أربعين يوما.

- وسواء في الإتيان زيارتهم حسا بأشخاصهم أو بالاتصال بالهاتف أو مشاهدة قنواتهم ، فإن صدقهم كفر ، وإلا لم تقبل له صلاة أربعين يوما ، فلينتبه كل مسلم لهذا وليتعلم توحيده قبل فوات الأوان .

- والمراد بالكفر في الحديث الكفر الأكبر لأنه الأصل ولا تحمل النصوص علي الأصغر إلا بقرينة ؛ ولهذا لما أراد النبي صلي الله عليه وسلم بعض أنواع الشرك أنها من الشرك الأصغر نص عليه فقال في الرياء (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما هو قال الرياء) وسبق أن الرياء فرد أو نوع من أنواع وأفراد الشرك الأصغر لا أنه كل الشرك الأصغر ، ويدل أيضا أنه من الكفر الأكبر ما سبق بيانه من أنه تكذيب للقران والحديث أنه لا يعلم الغيب إلا الله ولعدم كفرهم بالطاغوت.

- وقد تقدم أن قراءة الأبراج والخط لمعرفة ما يحدث في المستقبل وقراءة الفنجان ونحو هذه الأمور أنها كفر أكبر بإطلاق سواء اعتقد الناظر أنها أسباب لمعرفة الغيب ، أو أن النجوم والكواكب مستقلة في إحداث ذلك ومعرفته من طريقها ، أو اعتقد أن الكاهن يعرف ذلك بنفسه لأنه مكشوف عنه الحجاب وغير ذلك ، فكل هذه الحالات الثلاثة كفر أكبر ، فحيثما وجدت من يدعي إمكان علم الغيب أو المستقبل فهو كافر كفرا أكبر سواء اعتقد أنها أسباب أو اعتقد استقلاليتها في التأثير أعني النجوم والكواكب أو اعتقد أن فلانا يعرف ذلك استقلالا فالحالات الثلاثة من الكفر الأكبر.

- وعليه فإتيان الكهان ونحوهم علي مراتب أبينها لك في ظل ما ذكرناه من القواعد والنصوص:

الأولي:

أن يقول هم يعلمون الغيب بذاتهم لكشف الحجاب عنهم !

أو يتقربون إلي الشياطين لمعرفة ذلك فإن صدقهم الذي يأتيهم كفر ولرضاه بسحرهم وتكهنهم كذلك.

الثانية:

أن لا يعلم بتقربهم للشيطان لكن يظن أن معهم وسائل معرفة ذلك فعندهم من العلم ما ليس عندنا وهذه الحالة كفر أكبر كسابقتها إذ لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه ولولا أن بعض أهل العلم ذكرها ما كنت لأذكرها ؛ إذ حكمها ظاهر وهو الكفر الأكبر، لكن قل بعض المخلطين أنه كفر أصغر فلم أجد بدا من البيان .

قال في التيسير في رد ذلك :

(وظاهر الحديث أنه يكفر متي اعتقد صدقه بأي وجه كان ؛ لاعتقاد أنه يعلم الغيب وسواء كان ذلك من قبل الشيطان أو من قبل الإلهام لا سيما وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين ، وفي حديث رواه الطبراني عن واثلة مرفوعا (من أتي كاهنا فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدقه بما قال كفر) قال المنذري ضعيف ، فهذا - لو ثبت - نص في المسألة

، لكن ما تقدم من الأحاديث يشهد له ، فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه) انتهي.

الثالث:

أن يذهب إليهم لا ليصدقهم ولا ليسمعهم لكن ليظهر باطلهم فيخبرهم لكشف حالهم فهذا جائز ، ودليله سؤال النبي صلي الله عليه وسلم لابن صياد ؛ ففي الصحيحين من حديث ابن عمر ((أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ انْطَلَقَ مع رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رَهْطٍ مِن أصْحَابِهِ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ، حتَّى وجَدَهُ يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ في أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ، وقدْ قَارَبَ ابنُ صَيَّادٍ يَومَئذٍ الحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حتَّى ضَرَبَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ظَهْرَهُ بيَدِهِ، ثُمَّ قالَ: أتَشْهَدُ أنِّي رَسولُ اللَّهِ؟ فَنَظَرَ إلَيْهِ فَقالَ: أشْهَدُ أنَّكَ رَسولُ الأُمِّيِّينَ، ثُمَّ قالَ ابنُ صَيَّادٍ: أتَشْهَدُ أنِّي رَسولُ اللَّهِ، فَرَضَّهُ – أي دفعه - النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثُمَّ قالَ: آمَنْتُ باللَّهِ ورُسُلِهِ – قال ذلك صلي الله عليه وسلم حتي يستخرج منه جوابا عن سؤاله فلم يقل له لا وإنما قال صلي الله عليه وسلم امنت بالله ورسله أي إن كان رسولا فسنؤمن وإلا فلا ولهذا سأله ماذا تري أي من الوحي يعني حتي نؤمن بأنك رسول فلما قال يأتيني صادق وكاذب فتبين بامتحان النبي صلي الله عليه وسلم له أنه إنما تأتيه الشياطين فتبين للصحابة حقيقته أنه كذاب كاهن أو ساحر ولا حظ له من الرسالة - ، ثُمَّ قالَ لِابْنِ صَيَّادٍ: مَاذَا تَرَى؟ قالَ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وكَاذِبٌ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُلِّطَ عَلَيْكَ الأمْرُ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي خَبَأْتُ لكَ خَبِيئًا، قالَ: هو الدُّخُّ، قالَ: اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ، قالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أتَأْذَنُ لي فيه أضْرِبْ عُنُقَهُ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ يَكُنْ هو لا تُسَلَّطُ عليه، وإنْ لَمْ يَكُنْ هو فلا خَيْرَ لكَ في قَتْلِهِ.

الرابع :

أن يأتيهم وهو غير مصدق لهم ولكن ليسمع منهم فحكمه ألا تقبل له صلاة أربعين يوما.

٤ ، ٥-) الدليل الرابع والخامس مما ذكره المصنف:

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا: (ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تَكهن أو تُكهن له أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه البزاز بإسناد جيد، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: "ومن أتى.." الخ.

وقال ابن عباس - في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم -: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

- الحديث دليل علي تحريم حلّ السحر بالسحر ، وسيأتي تفصيل المسألة في الباب القادم باب ما جاء في النشرة ، وكذلك الطيرة يأتي بيانها في بابها إن شاء الله تعالي.
- وكتابة أباجاد تعلما وتعليما لمن يدعي علم الغيب كفر أكبر وهو الذي قصده ابن عباس ، وقوله ليس له عند الله من خلاق أي من نصيب وباستقراء نصوص الكتاب والسنة ما نفي الخلاق إلا في حالة الكفرالأكبر أعاذنا الله منه.
- وقوله (ينظرون في النجوم) محمول علي علم التأثير لا التيسير كما سيأتي في باب التنجيم إن شاء الله تعالي ، وقد سبق بيان طرف منه في باب ما جاء في بيان شيء من أنواع السحر.
- شبهة وردها:

إن قال قائل أنه يصدق الكهان بما تسترقه الشياطين من السماء ، قلنا الحديث عام ولم يعتبر الشرع صدق الكهنة مرة من المرات فإن النبي صلي الله عليه وسلم قد أطلق الحكم بالكفر كما في الأحاديث ولم يستثن شيئا ، غير أنه صلي الله عليه وسلم قد قال فيما يصح أن الشيطان يكذب معها مائة كذبة.

27) باب ما جاء في النُّشرَة

(وهي حَلُّ السحر **بسحر مثله** عن المسحور **)**

- مناسبة الباب:

بعد أن ذكر السحر وأنواعه وحكمه وحكم فاعله ومتعلمه والراضي به ناسب أن يذكر بعد ذلك كيفية حَله عن المسحور بالطرق المشروعة والتحذير من حله بسحر مثله وهو ما يسمي بالنشرة.

- والنشرة اسم مصدر من نَشَر ينشُر نَشْرا ونُشرة أي فرَد المطويّ ، والمراد هنا فرْدُ ما طواه الساحر وعقد فيه ونفث ، أو من نشر- بتشديد الشين - ينشر تنشيرا أي كشف وأزال ما بالمسحور من بلاء السحر .

١ **)** عن جابر : "أن رسول الله ﷺ سُئِل عن النُّشرة؟ فقال: هي من عمل الشيطان رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود .

- هنا إما أن تكون أل في (النشرة) للعهد الذهني وهو حل السحر عن المسحور بسحر مثله فقال صلي الله عليه وسلم هي من عمل الشيطان لأنه لا يعمل بالسحر إلا ساحر وتقدم أن السحر كفر وفاعله وطالبه والراضي به ومتعلمه كفار ، وإما أن نقول أن أل لبيان الجنس أي أن جنس النشرة من الشيطان ونستثني منها الرقي الشرعية والأدوية المباحة فنقسم حينئذ النشرة إلي نشرة محرمة ونشرة مباحة.

والصحيح أن النشرة شيء ، والعلاج بالرقي الشرعية السنية أو الأدوية شيء آخر فأل في النشرة للعهد الذهني وهي حل السحر بالسحر فحقيقة النشرة حقيقة عرفية واللفظ الوارد في الشرع محمول علي معناه الشرعي إن وجد وإلا فالعرفي ثم اللغوي ، والنشرة تعارف عليها السلف أنه حل السحر بالسحر وإن كان معناها اللغوي يشمل السحر والرقي لكن لا يفر اللفظ باللغة إلا إذا لم يكن له حقيقة شرعية أو عرفية ؛ فالنشرة كلها حرام ويؤيد هذا أن النبي صلي الله عليه وسلم كما في هذا الحديث لما سئل عن النشرة لم يستفصل هل تقصدون الرقي أم السحر بل قال باللفظ العام هي من

عمل الشيطان ولم يستثن شيئا، مع أن الرقي الشرعية أنفع دواء فدل هذا علي أن النشرة عند العرب وفي كلام السلف هي حل السحر بالسحر خاصة ، ولهذا لم يستفصل النبي صلي الله عليه وسلم هل تسألون عن النشرة المباحة أم المحرمة ! ، ومن المتقرر في القواعد أن : ترك
الاستفصال في مقام الاحتمال ينزل منزلة العموم في المقال ، غير أنه قد سبق في باب ما جاء في السحر أن أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلي لله عليه وسلم لما سُحر(هلا استخرجته) تعني تنشرت ، فقال صلي الله عليه وسلم (أَمَّا اللَّهُ فقَدْ شَفَانِي، وأَمَّا أنَا فأكْرَهُ أنْ أُثِيرَ علَى النَّاسِ شَرًّا) وهذا الشر أن يقبل الناس علي تعلم السحر ويعملوه أو يسعوا إلي فك السحر بغير الرقي الشرعية كالسحر.

وإنما يسمي رفع السحر بالرقي والأدوية المباحة بالحل أي فك السحر ، ولهذا سيأتي في حديث ابن المسيب القادم أنه سئل (أيحل عنه أم ينشر ؟) ففرق السلف بينهما ، وروي ابن أبي شيبة في المصنف بسند صحيح عن إبراهيم النخعي وهو من تلامذة ابن مسعود أنه قال (كانوا يكرهون التمائم والرقي والنشور) وهذا يبين لك أن السلف فرقوا بين الرقي وبين النشرة ، والكراهية هنا المراد منها التحريم لا الكراهة المصطلح عليها عند الأصوليين مؤخرا ، فالكراهة عن السلف يعنون بها التحريم .

وهذا إجماع نقله النخعي عن الصحابة في تحريم السحر مطلقا سواء لحل السحر أو للإضرار بالخلق .

- وأما أدلة تحريم حل السحر بالسحر وأنه كفر أكبر:

1. فكل دليل ذكرناه في باب ما جاء في السحر من تحريمه وتكفير معلمه ومتعلمه وإن لم يعمل به والراضي به وطالبه فهو دليل هنا علي تحريم النشرة.

واعلم هذه الأدلة عامة مطلقة سواء فعل السحر وتعلمه ورضي به للنشرة أو للإضرار بالخلق فالحكم واحد.

2. وللإجماع السابق الذي نقله النخعي.

3. ولنهي النبي صلي الله عليه وسلم عن التداوي بالحرام كما صح عند أبي داوود في سننه (الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تداووا بحرام)

4. وللحديث المتقدم في الباب السابق (ليس منا من تطير أو تطير له أو سحر أو سحر له).

5. وللحديث الذي تقدم في بيان شيء من أنواع السحر (من أتي كاهنا أو عرافا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل علي محمد).

6. وسدا للذرائع ؛ لأنه إذا علم الناس أن فلانا الساحر رفع السحر عن فلان المسحور سيسعون لتعلم السحر ، والرضا به حتي يألفوه ففي هذا إبقاء لهذا العلم الكفري المحرم مع أن الإسلام جاء بإعدامه وإعدام عامله ومتعلمه.

7. غير أنه من التعاون علي الإثم والعدوان وقد قال تعالي (وتعاونوا علي البر والتقوي ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان).

٢) وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه.

- ظاهر من الحديث أن ابن المسيب - رحمه الله تعالي - يجيز حل السحر بالسحر فإن كان كذلك فهذه زلة منه - رحمه الله وعفا عنه - لأن قوله (لا بأس) إنما يعني به السحر في حالة النشرة ، ولم يُرِد لا بأس بالرقي؛ إذ الرقي أمر بها النبي صلي الله عليه وسلم وهي أنفع من الأدوية المعهودة إن صلحت نية الراقي ولم يوجد عند المرقي مانع يمنع من نفعها ، وخطأ العالم يمتحن الله به الناس أيقدمون قول سيد الخلق علي كل أحد أم سيقدمون بين يدي الله ورسوله قول غيره ! وقد قال صلي الله عليه وسلم لما سئل عن النشرة هو من عمل الشيطان ولم يقل لا بأس ! فافهم هذا، ولا حجة في قوله إن كان هذا مراده إذ الإجماع والكتاب والسنة حجة عليه.

ولهذا اعتذر بعض أهل العلم لقول سعيد بأن مراده التداوي بالادوية المباحة والرقي الشرعية واستدلوا علي ذلك بما رواه ابن عبد البر عن سعيد لما سئل في الرجل يؤخذ من امرأته فيلتمس من يداويه فقال : إنما نهي الله عن ما يضر ولم ينه عما ينفع)، وبقول النبي صلي الله عليه وسلم في الصحيح (لا باس بالرقي ما لم تكن شركا) فقال لا بأس ، فعبر سعيد رحمه الله ورضي عنه بتعبير الرسول صلي الله عليه وسلم ، ويبعد أن يري جواز السحر في هذه الحالة مع ما ورد في كتاب الله وسنة النبي صلي الله عليه وسلم في السحر وعالمه ومتعلمه والراضي .

٣) وروى عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

- قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

- شبهة وردها :

يزعم بعضهم أن النشرة جائزة للضرورة

ورد ذلك من عدة أوجه:

الأول:

أن الشرك الأكبر لا تدخله الضرورات مطلقا كما هو مقرر في القواعد ؛ ذلك لأن حفظ الدين مقدم علي حفظ سائر الضرورات الخمس ، فلا ينعكس الأمر **!** فلا ينقض الدين ويكفر الناس لأجل إبقاء البدن ، فافهم هذا

قال ابن تيمية (١٤ / ٤٧٠) :

((وقال أيضاً: "المحرمات قسمان: أحدهما ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئا لا لضرورة ولا لغير ضرورة كالشرك والفواحش والقول على الله بغير علم والظلم المحض، وهي الأربعة المذكورة في

قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)، فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ولم يبح منها شيئا قط ولا في حال من الأحوال ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية، ونفي التحريم عما سواها، فإنما حرمه بعدها كالدم والميتة ولحم الخنزير، حرمه في حال دون حال وليس تحريمه مطلقا...

التوحيد أعظم مصلحة ومعروف أُمر به، والشرك أكبر مفسدة ومنكر نُهي عنه، وأعظم مقاصد الشريعة الحفاظ على الدين الذي هو رأس الضروريات الخمس، و أن رأس هذا الدين وأُسّه التوحيد والإيمان واجتناب الكفر والشرك والتنديد، وأن دفع مفسدة الكفر الأكبر مقدم على جلب المصالح المعتبرة في الدين مهما كثرت عند التزاحم:

قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء:48] ، وقال تعالى (والفتنة أكبر من القتل) [البقرة:217]، وقال سبحانه (والفتنة أشد من القتل) [البقرة191]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس في قوله (والفتنة أشد من القتل)، يقول: الشرك أشد من القتل"

الثاني :

أن ارتكاب المحظور حال الاضطرار مشروط بعدة شروط منها ألا يكون المحرم أعظم ضررا من هذه الضرورة كقتل معصوم لدفع الإكراه فهو محرم بالإجماع لأن حرمة دم المكره ليست أعظم من حرمة دم هذا المعصوم وبالإجماع يقتص من مدعي الإكراه إن قتل .

قال الشافعي في الأم :

((ولو أن المأمور بالقتل كان يعلم أنه - أي الإمام الذي أمره بالقتل - قتله ظلما كان عليه - يعني القاتل المباشر مدعي الإكراه - وعلي الإمام القود وكانا قاتلين معا)).

والعمل بالسخر أعظم ضررا بكثير من إصابة المصاب بالسحر لأنه لا يوجد في الدنيا أعظم من ضرر الكفر والشرك.

الثالث :

ومن هذه الشروط أيضا أن تكون المنفعة بارتكاب المحظور موهومة او محتملة ، فكذلك الانتفاع بالسحر فهو موهوم لأن الله تعالي نفع النفع عنه فلم يجز فعله ،قال تعالي (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم).

الرابع :

عدم وجود بديل لهذا المحظور وهو السحر ، وهنا يوجد بدائل كثيرة نافعة كالرقية الشرعية ،

والأدوية المباحة كماء زمزم فهي شفاء سقم ، وكالتصبح بسبع تمرات عجوة ، وكالحبة السوداء فهي شفاء من كل داء الا السام .

كما صحت بذلك أحاديث ، وكالنشرة العربية كما جاء عند عبد الرزاق قال: قال الشعبي (لا باس بالنشرة العربية) وهي أن يخرج لأرض عضاه أي ذات أشجار فيها أشواك فيأخذ المسحور من ثمارها وأوراقها ويقرأ عليها القران ، ومثله ما جاء عند معمر في جامعه وفي كتب ابن وهب أن تاخذ سبع ورقات من سدر فتدقه بين حجرين ثم تضربه في ماء وتقرا عليه ذوات قل وآيات السحر والحسد وآية الكرسي وتشرب منه أو تغتسل به .

وذكر ذلك أيضا ابن حجر في الفتح والقرطبي في التفسير .

وأوصي به ابن القيم والشيخ ابن باز وقالوا هي من الأسباب القدرية المجربة التي ثبت نفعها عن السلف .

28) باب ما جاء في التطير

- مناسبة الباب لما قبله:

أن المصنف لا يزال يذكر الناس وينبههم لأنواع من الشرك التي يجهلون أنها شرك حتي لا يقعوا فيها من باب : عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه : ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

ولهذا قال عمر الفاروق رضي الله عنه كما ذكره ابن القيم في المدارج:

((إنما تنقض عري الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية والشرك))

غير أنه قد تقدم أن الطيرة من الجبت ولهذا نذكرها هنا بشيء من التفصيل علي وجه التحذير منها .

- والتطير أو الطيرة هو التشاؤم بمرئي كرؤية ما يتشاءم منه بعض الناس، أو مسموع كمن يسمع يا خاسر فيرجع عن حاجته ، أو بمعلوم كالتشاؤم ببعض الأيام والشهور ، والتشاؤم أوالطيرة هي توقّع حصول شيء بذلك فيرجع العبد عن الإقبال علي ما أراده ، وقد سبق في باب بيان شيء من السحر أنها أشمل من العيافة لأنها تشمل رؤية الطير أو غيره وأنها تشاؤم لا تفاؤل .

- والطيرة قديمة في الأمم كما سيأتي في سورة الأعراف عن قوم موسي ، وفي سورة يس عن أصحاب القرية ، وأما حكمها فقد تكون شركا أكبر ، وقد تكون شركا أصغر ؛ فإذا اعتقد المتطير أن ما تطير به مستقل في التأثير بإحداث ضرر بذاته دون إرادة الله ومشيئته فهذا شرك أكبر كما هو اعتقاد كثير من المشركين من الصينين والكوريين والهندوس وكثير من من ينتسب إلي الإسلام ، ونحوهم لأن المتطير بذلك قطع توكله علي الله واعتمد علي غير الله معتقدا استقلاله بإحداث الخير والشر فهذا شرك في العبادة والربوبية ، وشرك في الأسماء واصفات أيضا لأنه يعتقد أنها قادرة علي ما لا يقدر عليه إلا الله وتعلم حالك وما سيكون مع أن الغيب كله لله العليم الخبير الشهيد المهيمن ، وأما إذا اعتقد أنها مجرد أسباب تحصل بإذن الله لحصول الشر أو الخير فهو شرك أصغر لأنه علق قلبه بأمر لا حقيقة له أصلا ونزل نفسه منزلة المضاهي

للشارع فجعل ما ليس بسبب سببا ، وإن كان لا يعتقد هذا ولا ذاك لكنه انقبض قلبه برؤية ذلك فهو آثم لكن إثمه دون الأول إلا إذا دافعه في الحال ولم يتابعه فلا شيء عليه بل هو دأب الموحد الحريص علي تصفية توحيده مما ينقصه أو يشوبه من الشرك الأصغر والأكبر.

قال السعدي في القول السديد :

((إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثّر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين ، ن وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزنا وهما وغما، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج إلى الأمر الأول.

فإن لم يدافعه وقع في الشرك وأسرعت الطيرة إليه كالسيل في منحدره وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويعطاه ويراه حتي يقع في المحذور)**انتهي كلامه**.

ولهذا قال صلي الله عليه وسلم كما عند مسلم (ذاك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه).

وأخرج الطبراني وغيره بسند حسنه الألباني (لن ينال الدرجات العلي من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرا).

وسبق أن التكهن كفر أكبر لاعتقاده إمكان علم الغيب ، وأما الاستقسام بالأزلام وهي عبارة عن ثلاثة قداح علي أحدها افعل وعلي الآخر لا تفعل والثالث فارغ فإن طلع له افعل فعل وإن طلع له لا تفعل رجع وإن طلع الفارغ أعاد وهذا من ادعاء الغيب وقد قال تعالي (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ، وأما الطيرة فقد تقدم تفصيل القول في حكمها .

1) وقول الله تعالى: (ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون)، وقوله: (قالوا طائركم معكم).

- في التفسير الميسر (فإذا جاء فرعونَ وقومَه الخِصْبُ والرزقُ قالوا: هذا لنا بما نستحقه، وإن يُصِبْهم جدب وقحط يتشاءموا، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومَن معه. ألا إنَّ ما يصيبهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره، وبسبب ذنوبهم وكفرهم، ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك؛ لانغمارهم في الجهل والضلال). انتهي .

فما يلاقونه من خير أو شر فمن عند الله فالحسنة بفضله ورحمته ، والسيئة بعدله وحكمته بإذنه الكوني بسبب ما كسبت أيديهم من الكفر.

وقيل طائرهم عند الله أي ما يتطيرون به سيجدونه من سوء العذاب يوم القيامة جزاء كفرهم وتكذيبهم ، ومعني آية يس (الشؤم في الذنوب، فهي بريد الشرِّ وعنوان المهالك، فمَن أسرف على نفسه فيها ولم يتُب إلى ربِّه منها فلينتظر ما يكره) أي طائركم عند الله خلقا وإيجادا ، وطائركم معكم أي ما أصابكم من شؤم فبذنوبكم .

2) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر) أخرجاه، زاد مسلم: (ولا نوء، ولا غول).

- لا عدوي : العدوي انتقال المرض من المريض إلي الصحيح ، ففي هذا الحديث نفي العدوي

وفي حديث آخر عند البخاري أيضا (قال أعرابي يا رسول الله إن إبلي تكون في الرمل كالظباء فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها فقال فمن أعدي الأول ؟)

وفي حديث آخر عند البخاري كذلك قال صلي الله عليه وسلم (فِرّ من المجذوم فرارك من الأسد)

فأثبت هنا العدوي.

ومثله ما جاء في صحيح مسلم من حديث الشريد بن سويد ((كانَ في وَفْدِ ثَقِيفٍ رَجُلٌ مَجْذُومٌ، فأرْسَلَ إلَيْهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: إنَّا قدْ بَايَعْنَاكَ، فَارْجِعْ))

وهذه الاحاديث مؤتلفة غير مختلفة تفهم ذلك بالآتي:

قلت في كتابي (اللآلئ الدرية شرح المنظومة البيقونية):

((والجمع بين هذه الاحاديث النافية للعدوي والمثبتة لها أن نقول أن نفي العدوي المقصود به في الحديث هو نفي كونها ممرضة بذاتها مستقلة عن مشيئة الله وقدرته وإذنه فهذا هو محل نفي العدوي ، فإذا لم يشأ الله أن يصاب الصحيح من المريض لم يصب ، وإذا شاء أن يصاب أصيب ، وقوله صلي الله عليه وسلم وفر من المجذوم فيه إثبات كون العدوي سببا قدريا صحيحا لنقل المرض لكن لا تكون إلا بإذن الله وقدرته ، ولهذا قال فر من المجذوم إثباتا لأثرها ، وقال لا عدوي لدفع اعتقاد أنها ممرضة بذاتها حتي لا يتعلق القلب بالسبب عن مسبب الأسباب سبحانه وتعالي)).

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:

((فالمقامات ثلاثة:

أحدها : تجريد التوحيد وإثبات الأسباب، وهذا هو الذي جاءت به الشرائع، وهو مطابق للواقع في نفس الأمر.

والثاني : الشرك في الأسباب بالمعبود، كما هو حال المشركين على اختلاف أصنافهم.

والثالث: إنكار الأسباب بالكلية؛ محافظة من منكرها على التوحيد.

فالمنحرفون طرفان مذمومان: إما قادح في التوحيد بالأسباب، وإما منكر للأسباب بالتوحيد، والحق غير ذلك، وهو: إثبات التوحيد والأسباب، وربط أحدهما بالآخر ...))

ثم قال

(وعندي في الحديثين مسلك آخر يتضمن إثبات الأسباب والحكم، ونفي ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل، ووقوع النفي والإثبات على وجهه، فإن العوام كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل، كما يقوله المنجمون من تأثير الكواكب في هذا العالم وسعودها ونحوسها، كما تقدم الكلام عليهم، ولو قالوا: إنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته، وأنها مسخرة بأمره لما خلقت له، وأنها في ذلك بمنزلة سائر الأسباب التي ربط بها مسبباتها وجعل لها أسبابا أخر تعارضها وتمانعها، وتمنع اقتضاءها لما جعلت أسبابا له، وإنها لا تقضي مسبباتها إلا بإذنه ومشيئته وإرادته، ليس لها من ذاتها ضر ولا نفع ولا تأثير البتة، إن هي إلا خلق مسخر مصرف مربوب، لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته، وغايتها أنها جزء سبب ليست سببا تاما فسببيتها من جنس سببية وطء الوالد في حصول الولد، فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب التي خلق الله بها الجنين ... وهكذا جملة أسباب العالم من الغذاء والرواء، والعافية والسقم وغير ذلك، وأن الله سبحانه جعل من ذلك سببا ما يشاء، ويبطل السببية عما يشاء، ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه، فهم لو أثبتوا العدوى على هذا الوجه لما أنكر عليهم، كما أن ذلك ثابت في الداء والدواء، وقد تداوى النبي وأمر بالتداوي، وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم، فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء، وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها، وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة بهذه الأسباب، وعلى هذا قيام مصالح الدارين، بل الخلق والأمر مبني على هذه القاعدة؛ فإن تعطيل الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسبابا، تعطيل للشرع ومصالح الدنيا، والاعتماد عليها والركون إليها، واعتقاد أن المسببات بها وحدها، وأنها أسباب تامة، شرك بالخالق عز وجل، وجهل به، وخروج عن حقيقة التوحيد، وإثبات مسبباتها على الوجه الذي

خلقها الله عليه وجعلها له: إثبات للخلق والأمر، للشرع والقدر، للسبب والمشيئة، للتوحيد والحكمة، فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه، وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك)) **انتهي كلامه .**

- وقوله لا طيرة : نفي لكون المتطير به والمتشاءم منه سببا لحصول الشر كما تقدم بيانه أن الطيرة دجل وخرافة و وهم لا حقيقة له أصلا ، وفي الأثر الذي أخرجه ابن مفلح في (الآداب الشرعية) وأخرجه أيضا الدينوري في (جواهر العلم والمجالسة).: خرج طاوس بن كيسان رحمه الله مع صاحب له في سفرٍ، فصاح غراب، فقال الرجل: خير خير، فقال له طاوس: وأي خير عند هذا، وأي شر؟ لا تصحَبني .

ومثل ذلك في الحكم قول كثير من الناس (صباح الخير ومساء الخير) فهذا من الطيرة ولا يجوز لتعليق الخير بما لا أثر له من الأوقات وإنما نقول صبحك الله بالخير ومساك الله بالخير ، وأما قول صباح الخير ومساء الخير فهو من الشرك الأصغر لنسبة الخير والشر لأمور وهمية وليست بأسباب لذلك أصالة ، ولا يقال أن ذلك من باب الدعاء ؛ بل هي من إضافة الشيء لسببه كما هو مقرر في علم النحو ولهذا قال ابن مالك في ألفيته :

والثاني اجرر وانو من أو في إذا

لم يصلح الا ذاك واللام خذا

لما سوي ذينك واخصص أولا

أو أعطه التعريف بالذي تلا

فبين المضاف الذي هو كلمة صباح ، والمضاف إليه الذي هو كلمة خير بينهما حرف منوي وهو هنا اللام علي أن الصباح سبب للخير ، وليس بسبب لا شرعي ولا قدري ، ولهذا هو من الشرك الأصغر لما ذكرناه في باب الأسباب .

- وقوله : لا هامة

الهامة قيل هي البومة أو كل ذي عين واسعة من الآدميين إذا رأوه تشاءموا وظنوا أنه إنذار بمصيبة ، وقيل هو اعتقادهم في الجاهلية من تحول عظام الميت لطائر يطير ينادي ويؤذي إذا قتل القتيل ولم يؤخذ بثأره فنفي الرسول صلي الله عليه وسلم ذلك.

وقيل الهامة دودة حول قبر المقتول تنادي بثأره وأن تسقي من دم القاتل.

وهذه كلها من صور الطيرة الشركية المحرمة وإنما عطفها الرسول صلي الله عليه وسلم علي الطيرة من باب عطف الخاص علي العام لكثرة وقوعه عند العرب .

- قوله لا صفر

قيل معناه لا شؤم في صفر لأنهم كانوا يتشاءمون من السفر في صفر أو عقد الزواج فيه فأبطل الإسلام ذلك والآن يتشاءمون من محرم فيقولون (ولد عاشور أقشر قاشور) فنفي الرسول صلي الله عليه وسلم الشؤم في صفر أو غيره من الشهور والأزمنة والأمكنة والمخلوقين.

وقيل هو نفي للنسيء الذي كان عليه المشركون وهو تأخير حرمة الشهر للشهر الذي يليه اتباعا لأهوائهم فلما بعث صلي الله عليه وسلم قال (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم .. الحديث)

وقيل أن صفر داء يصيب البطن فنفي ذلك بكلمات موجزة وهذه من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام .

- وقوله ولا نوء

أي لا نجم يؤثر في نزول الأمطار ولهذا نري كثيرا تكاثف السحب في مكان يظن أهله أنها ستمطر فإذا بها لا تمطر بل تمطر في مكان آخر لا وجود للسحب فيه .

- قوله ولا غول بفتح الغين وضمها والضم أحسن

وجمعه غيلان ، وهي شياطين كانت تخاف منها العرب فنفي الرسول صلي الله عليه وسلم ذلك وجودا وتأثيرا ، وبعض العلماء كالنووي يثبتها عن بعضهم وعلي هذا تكون موجودة لكن نفي النبي صلي الله عليه وسلم تأثيرها بذاتها .

وهذا كله من عطف الخاص علي العام الذي هو الطيرة لكثرة وقوعها عند الناس وإلا فالطيرة أشمل من هذا كله كما تقدم في تعريفها .

٣) ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة) .

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

- والفأل هو ما يسرّ الإنسان سواء كان أمرا مسموعا أو كان عملا أو شيئا مرئيا تماما كما قلنا في الطيرة وإنما أراد النبي صلي الله عليه وسلم ضرب المثال بالكلمة الطيبة ، فهي كتشجيع وتنشيط للمريد الذي يمضي لحاجته التي يريدها لا لأجل الفأل ولا لغيره وإنما سيمضي لشأنه علي كل حال لكن دخله بسماع الفأل السرور وحسن الظن بربه مع علمه أن ما تفاءل به لا أثر له في نفس الأمر فهو ماض لحاجته متوكلا علي ربه محسنا الظن به سبحانه ، بخلاف الطيرة التي ترد المشرك عن حاجته أو تقبض قلبه علي أقل تقدير ، فشتان ما بينهما.

وعند الترمذي بسند صححه الألباني (أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يُعجِبُه إذا خَرجَ لِحاجَةٍ أن يَسمعَ : يا راشِدُ ، يا نَجيحُ).

والفأل أو التفاؤل بمرئي أو بمسموع أو بمعلوم المباح منه فقط أن يزيد من النشاط والإقدام وإلا فإن ((أوجب)) الفأل مضيا صار من الطيرة ، بمعني أنه إذا كان لولا ما سمعه من الفأل لما مضي في حاجته فهذا حينئذ شرك ويصير مثله مثل الطيرة في الحكم ، وإنما الفأل المباح أن يقوي النفس علي المضي في الأمر من غير اعتماد عليه وإنما هو حسن ظن بالله تعالي.

قال في التيسير :

((قال أبو السعادات: الفأل، مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت، على التحقيق والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفا، وإنما أحب الفأل؛ لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر، وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته، ومنه الحديث: " قيل يا رسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة."

قوله: "قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة". بيّن صلي الله عليه وسلم أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

((ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم صلي الله عليه وسلم: " أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم، وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس

وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال. فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفا وطيرة وانكماشا وانقباضا عما قصدت له وعزمت عليه؛ فأورث لها ضررا في الدنيا ونقصا في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: " وإنما كان صلي الله عليه وسلم يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال**"))** **انتهي .**

وعليه فالفرق بين الطيرة والفأل أن الفأل يكون فيما يسر بخلاف الطيرة فهي فيما يسوء ، والفأل حسن ظن بالله تعالي ، وأما الطيرة فسوء ظن بالله سبحانه.

ويحرمان إن أوجبا ردا أو مضيا كما سبق ، فيكون الفأل شركا كالطيرة.

4) ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

- هذا ذكرٌ شرعه الرسول صلي الله عليه وسلم لدفع الطيرة قبل أن تقع ، وكفارة لها إذا زل فتطير ، وهو ذكر واجب في هذه الحال للأمر به لأن دفع الشرك واجب ، وهذا نهج الموحد الذي ينبغي أن يكون وهو أن يسد علي نفسه كل باب يوصله إلي الشرك فيسبق قلبه ولسانه الي كراهية ذلك ويتخلص منه بالأذكار المشروعة ، ففائدة هذا الذكر رفع الذنب قبل وقوعه ودفعه إذا وقع ؛ ففيه تصحيح لعقيدة الموحد إذا انتابه الشيطان بالطيرة ، وهذا من فعل أصحاب القلوب الحية العامرة بالتوحيد لا يدعون للشيطان منفذا يدخل عليهم منه إلا ويسدونه.

قال في التيسير :

(وهذا دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ويعد من اعتقدها سفيها مشركا ..قال الطيبي : في قوله ولا ترد مسلما تعريض بأن الكافر بخلافه ،

وقوله : قوله ولا حول ولا قوة إلا بك استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سببا لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات والحول التحول والانتقال من حال إلى حال والقوى على ذلك أي لا حول ولا قوة على ذلك الحول إلا بك وذلك يفيد التوكل على الله لأنه علم وعمل فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضر وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين وهو داخل في هذه الكلمة لأن فيها التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته والاقرار بقدرته على كل شيء وبعجز العبد عن كل شيء إلا ما أقدره عليه ربه وهذا نهاية توحيد الربوبية الذي يثمر التوكل وتوحيد العبادة) **انتهى.**

- وقوله اللهم لا طير إلا طيرك أي أنت مسببه يا رب ، مع العلم أن من الخطأ ان يقال أن الله يريد الشر ويفعله ولا نقول أيضا لا يريده ولا يفعله بل لا بد من تفصيل ذكرته في كتابي (كتاب القضاء والقدر) فراجعه هناك غير مأمور .

5) وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داوود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

- وقول ابن مسعود (وما منا إلا) أي ما منا أحد إلا وقد يعتريه التطير لكن يسبق إلي قلبه كراهية ذلك ويدافعه بحسن التوكل علي الله تعالي ، وهذا هو الفرق بين قوي الإيمان كامل التوحيد المجتهد في تحقيق التوحيد وتصفيته مما يشوبه من الشرك ، وبين ضعيف الإيمان ناقص التوحيد المسترسل في الطيرة لا يدافعها ولا يقول ما سنه الرسول صلي الله عليه وسلم من الذكر لمحوها.

قال في التيسير :

(قال الخلخالي : حذف المستثني لما يتضمنه من الحالة المكروهة وهذا نوع من الأدب) .

6) ولأحمد من حديث ابن عمرو (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول اللهم لا خير الا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) .

- **قال في التيسير** (قوله من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك وذلك أن التطير هو التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشرك بل ولجه وبرىء من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله وذلك قاطع له عن مقام إياك نعبد وإياك نستعين فيصير قلبه متعلقا بغير الله وذلك شرك فيفسد عليه إيمانه ويبقى هدفا لسهام الطيرة ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه وكم ممن هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة) **انتهي .**

7) وله من حديث الفضل بن العباس (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك).

- **قال في التيسير** (قوله إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك هذا حد للطيرة المنهي عنها بأنها ما أوجب للانسان أن يمضي لما يريده ولو من الفأل فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس فأما أن يعتمد عليه ويمضي لأجله مع نسيان التوكل على الله فإن ذلك من الطيرة وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته فإن ذلك أيضا من الطيرة) **انتهي .**

شبهة وردها:

في الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال (إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الفَرَسِ ، وَالمَرْأَةِ ، وَالدَّارِ).

وزيد رابعها الخادم في أحاديث أخري .

واختلف في بيانها أهل العلم علي أقوال :

القول الأول وهو الصحيح:

ما ذكره ابن القيم من أن هذه الأربعة سبب شر بذاتها لسوء صفاتها الظاهرة منها كضيق الدار ، ونشوز المرأة وصلاتة لسانها ، ورداءة المركب أو الدابة ، وعصيان الخادم فهي ظروف وأسباب محسوسة يقدر الله تعالي بها اليمن أو الشؤم ، والضر أو النفع فمن وجد من ذلك شيئا أبيح له تركها

ذكر ابن القيم الخلاف في مفتاح دار السعادة ثم قال مرجحا:

((إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه اثبات الطيرة التي نفاها الله ،وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعيانا منها مشؤومة على من قاربها وسكنها وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدا مباركا يريان الخير على وجهه ويعطي غيرهما ولدا مشؤوما يريان الشر على وجهه وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها فكذلك الدار والمرأة والفرس والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له ويخلق بعضها نحوسا ينتحس بها من قاربها وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس وخلق ضدها وجعلها سببا لألم من قاربها من الناس والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة والشركية لون انتهى قلت ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه وكذلك ينبغي لمن سكن دارا أن يفعل ذلك.

قلت : ثم ذكر إشكالا علي هذا القول الراجح وأجابه فقال:

(ولكن يبقى على هذا أن يقال هذا جار في كل مشؤوم فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر وجوابه أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة فخصت بالذكر لذلك ذكره في شرح السنن))

ثم ذكر إشكالا ثانيا فقال:

((ومنها ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال جاءت امرأة إلى رسول الله صلى لله عليه وسلم فقالت يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال النبي ﷺ دعوها ذميمة رواه أبو داود عن أنس بنحوه وجوابه أن هذا ليس من الطيرة المنهي عنها بل أمرهم بالانتقال لأنهم استثقلوها واستوحشوا منها لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة مما دخلهم من الجزع لأن الله قد جعل في غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه وإن كان لا سبب له في ذلك وحب من جرى على يديه الخير لهم وإن لم يردهم به ولأن مقامهم فيها قد يقودهم الى الطيرة فيوقعهم ذلك في الشرك والشر الذي يلحق المتطير بسبب طيرته وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة للزم كل من ضاق عليه رزق في بلد أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها الى غيرها ومنها)).

قلت : فهؤلاء تطيروا بالدار لا لأجل أمر محسوس فيها ولكنها الطيرة المحرمة ومع ذلك لم ينههم عنها النبي صلي الله عليه وسلم وإنما أمرهم بتركها حتي لا يوقهم ذلك في شرك الطيرة .

ثم قال :

((فان قيل ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخص في الارتحال عن الدار دون موضع البلاء أجاب بعضهم أن الأمور بالنسبة الى هذا المعنى ثلاثة اقسام احدها ما لا يقع التطير منه نادرا أو لا مكررا فهذا لا يصغى اليه كنعي الغراب في السفر وصرخ بومة في دار وهذا كانت العرب تعتبره ثانيها ما يقع به ضرر ولكنه يعم ولا يخص يندر ولا يتكرر كالوباء فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه وثالثها سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة والفرس والدار فيباح له

الاستبدال أو التوكل على الله والإعراض عما يقع في النفس ذكره في شرح السنن)) **انتهي كلام ابن القيم .**

القول الثاني :

أن الشؤم والطيرة منفي في كل شيء ولو كان واقعا لكان في هذه الأربعة المرأة والدابة والدار والخادم لكنه لا يقع فيها ولا في غيرها ، يدل علي ذلك الحديث المتفق عليه

من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:(إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ ، فَفِي المَرْأَةِ ، وَالفَرَسِ ، وَالمَسْكَنِ).

وهو ما ذهب إليه الطحاوي في مشكل الآثار حيث قال

((فَكَانَ ما في هذا ، على أَنَّ الشُّؤْمَ : إنْ كان ، كان في هذه الثَّلاَثَةِ الأَشْيَاءِ ؛ لاَ يَتَحَقَّقُ كَوْنُهُ فيها)

ونصره الشيخ الألباني واستدل بما رواه ابن ماجه في "سننه" (1993) وصححه من حديث مِخْمَرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ:(لَا شُؤْمَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْيُمْنُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الْمَرْأَةِ ، وَالْفَرَسِ ، وَالدَّارِ).

واعترض عليه بأنه جاءت روايات بالجزم والحصر كما في الصحيحين أيضا (إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلاَثَةٍ: فِي الفَرَسِ ، وَالمَرْأَةِ ، وَالدَّارِ).

القول الثالث :

أن هذا حكاية لما كان واقعا من أهل الجاهلية ، وهو قول أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

فقد روى أحمد في "مسنده" (26034) من طريق أَبِي حَسَّانَ ، قَالَ : " دَخَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ عَلَى عَائِشَةَ ، فَأَخْبَرَاهَا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:(الطِّيَرَةُ فِي الدَّارِ ، وَالْمَرْأَةِ ، وَالْفَرَسِ) ، فَغَضِبَتْ فَطَارَتْ شِقَّةٌ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ ، وَشِقَّةٌ فِي الْأَرْضِ ، وَقَالَتْ:

وَالَّذِي أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَا قَالَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ ، إِنَّمَا قَالَ:(كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَطَيَّرُونَ مِنْ ذَلِكَ).

القول الرابع:

أن من تطير بهذه الأربعة عاقبه الله بنقيض قصده وكانت الطيرة عليه وهو قول ابن بطال في شرح البخاري .

القول الخامس:

حمل الحديث علي ظاهره وأنه لا طيرة الا في هذه الأربع ،وهو قول مالك وابن قتيبة والشوكاني

فنقل النووي ذلك عن مالك في شرح مسلم (٤٧٢/١٤):

(هو علي ظاهره وأن الدار قد يجعل الله سكناها سببا للضرر وهلاك ، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يخصل الضرر عنده بقضاء الله تعالي) .

ونقل ابن حجر في الفتح (٦١/٦) عن ابن قتيبة:

(ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون فنهاهم النبي صلي الله عليه وسلم وأعلمهم أن لا طيرة فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة في هذه الأشياء الثلاثة)

وقال الشوكاني في نيل الاوطار :

(والراجح ما قاله مالك فيكون حديث الشؤم مخصصا لعموم حديث لا طيرة فهو في قوة لا طيرة إلا في هذه الثلاث).

والفرق بين هذا القول والقول الأول الراجح أنهم رأوا هنا أنه يجوز التطير بها سواء كانوا سببا محسوسا لضر ظاهر كنشوز المرأة وعجز الدابة ونحوها أو لم يكن، وأما قول ابن القيم فأعاد الشؤم فيها لصفاتها الظاهرة منها لا لكل ما يعرض لأصحابها منها من خير أو شر فتأمل .

وهذا القول الأخير قول ضعيف ؛ فإنه بما تبين أن الطيرة شرك فينبغي تحريمها والتحذير منها بإطلاق لا يستثني منها شيء حتي يقال أن الطيرة الشركية هناك غير جائزة ، وهنا جائزة !

فالصحيح الموافق لظاهر النصوص ، وفيه ائتلاف و إعمال لجميعها ، وفيه صيانة لجناب التوحيد ، وحفاظ علي التوكل علي الله تعالي هو ما ذكرناه في القول الأول ، فافهم هذا وفقني الله وإياك .

29) باب ما جاء في التنجيم

- مناسبة الباب : بعد أن ذكرنا حكم السحر وعالمه ومتعلمه والراضي به ذكرنا بعدها ما هو شعبة من السحر فبدأنا بذكر حكم الكهانة ثم الطيرة وهنا نذكر حكم التنجيم ؛ لِما تقدم في الأحاديث أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر لأن الناظر فيها قد اعتمد علي أمور خفية فيها ادعاء للعلم بالغيبيات سواء صاحبه تقرب واستعانة بالشياطين أو لم يصاحبها .

١) قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به "

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه" ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

- فالنجوم زينة للسماء كما قال تعالي (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) ورجوما للشياطين كما قال تعالي (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا) ، وعلامات يهتدي بها في معرفة الجهات والقبلة وأوقات الصلوات.

- وقد حذر النبي صلي الله عليه وسلم من التنجيم أي علم النجوم وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علي الحوادث الأرضية .

- وتعلم علم النجوم علي خمسة أنواع باعتبار حكمه:

الأول:

ليستدل به علي الجهات والقبلة وهو علم التيسير أو التسيير لا التأثير ، ومنه قوله تعالي (وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

الثاني :

للاستدلال بها علي أزمنة الفصول السنوية، ، وهو علم منازل القمر ، وهذا كذلك جائز ، وسيأتي تفصيل المسألة فيه قريبا في شرح أثر قتادة ، وقال الشيخ ابن عثيمين في القول المفيد (الصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر لأنه لا شرك فيها ، إلا أن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد ، وأنها هي الجالبة لذلك فهذا نوع من الشرك ، أما مجرد معرفة الوقت بها هل هو الربيع أو الهريف أو الشتاء فهذا لا بأس به).

الثالث :

معرفة ما سيكون في المستقبل ومنه قراءة الأبراج ومعرفة الخطوط ، وهذا كفر أكبر ولو ادعي المدعي أنهم لا يعلمونه استقلالا وإنما بأسباب جعلها الله أسبابا للعلم بما سيكون **!!** ذلك لادعاء علم الغيب الذي نفاه الله تعالي في عدة آيات في كتابه منها قوله تعالي (إنما الغيب لله) ، وقوله سبحانه (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) ، وقوله عز من قائل (عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا)

قال في التيسير:

(الاستدلال علي الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك ويقول إن ذلك بتقدير الله ومشيئته ، فلا ريب في تحريم ذلك ، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك ، وينبغي أن يقطع بكفره لأنها دعوي لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالي بعلمه بما لا يدل عليه).

ومع الأسف بعض الشراح يدعي أنه من الكفر الأصغر **!** فانتبه لهذا.

والان يكتبون رسم البروج في الجرائد والمجلات ويزعمون أن من كان من برج الأسد أو الثور أو نحوها سيحصل له هذا اليوم أو الشهر كذا وكذا ومع الأسف تجد كثيرا من الجهال بالتوحيد يطلعون عليها ويقرأونها من غير نكير ، ولا شك في كفر المنجم وأما من يقرأ ذلك من الناس فإن اعتقدوا صدقها أو صدق خبر واحد منها فقد كفر بما أنزل علي محمد - صلي الله عليه وسلم - ولو كذب

سائر الأخبار ، كما تقدم في باب ما جاء في الكهان ونحوهم ، وأما إن قرأها قارئها من غير اعتقاد صدقها بل يعلم أنها كذب لكن اطلع لمجرد الاطلاع لم تقبل لهم صلاة أربعين يوما ، فهذه المجلات تعتبر كهانا ومنجمين في بيوت المسلمين والعياذ بالله .

ألا فليحذر المسلمون من قراءة الأبراج وليجنبوها بيوتهم وأهليهم وأولادهم وليتعلموا توحيد الله تعالي ، وواجب علي كل صاحب دعوة أو سلطة أن ينهي الناس عن هؤلاء وأن يبينوا حكم الله فيهم

الرابع :

اعتقاد أنها مؤثرة بذاتها ، وهذا واضح أنه كفر أكبر.

الخامس :

اعتقاد أنها مسببات يعلم بها ما حصل من موت شريف أو وجيه ، وأنها مسببة عن ذلك فهذا شرك أصغر ؛ وليس أكبر لأنه ليس فيه صرف لعبادة لغير الله ولا اعتقاد أنها مؤثرة بذاتها فليس شركا في الربوبية ولا العبادة لكنه أصغر لتعلق القلب بما لا حقيقة له أصلا ، والقاعدة أن من اعتقد شيئا سببا لشيء ولم يجعله الله تعالي سببا فقد تعدي علي الله لأن مسبب الأسباب هو الله وحده فأنت بفعلك هذا اعتديت علي مقام الربوبية بجعل شيء سببا لشيء والله لم يجعله كذلك ، وقد حذر النبي صلي الله عليه وسلم من ذلك كما في حديث أبي موسي الأشعري الذي أخرجه البخاري في صحيحه فقال

(خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَزِعًا، يَخْشَى أنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فأتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بأَطْوَلِ قِيامٍ ورُكُوعٍ وسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وقالَ: هذِه الآياتُ الَّتي يُرْسِلُ اللَّهُ، لا تَكُونُ لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، ولَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ به عِبادَهُ، فإذا رَأَيْتُمْ شيئًا مِن ذلكَ، فافْزَعُوا إلى ذِكْرِهِ ودُعائِهِ واسْتِغْفارِه) .

فإن قيل ولماذا لم تعتبروا الحالة الثالثة من ذلك ورددتم قول من قال أنه ان اعتقد أنها أسباب للعلم بالغيب لا باستقلال أنه أصغر أيضا قلنا لأن كفره هذا باعتباره معتقدا إمكان العلم بالغيب وهذا

تكذيب لآي القران التي فيها نفي علم الغيب عن غير الله سبحانه وتعالي ، وكذا نقول في حالة كفر زائر الكهان ولو اعتقد أنهم لا يعلمون الغيب استقلالا لنفس السبب السابق الذي ذكرته ، فافهم هذا.

ويدخل في هذا القسم اعتقاد تسبب النجوم في إنزال الأمطار فهو شرك أصغر ، أو استقلاليتها بالتاثير وهو شرك أكبر ، كما في حديث زيد بن خالد الجهني المروي عند البخاري في الصحيح قال صلي الله عليه وسلم

(صلى لَنَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ علَى إثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أقْبَلَ علَى النَّاسِ، فَقالَ: هلْ تَدْرُونَ مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أصْبَحَ مِن عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وكَافِرٌ، فأمَّا مَن قالَ: مُطِرْنَا بفَضْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلكَ مُؤْمِنٌ بي وكَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَن قالَ: بنَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بي ومُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ) وسيأتي بيانه في الباب القادم ان شاء الله .

وفي مجمل تفصيل الحالات السابقة في علم النجوم قال في القول المفيد كلاما جامعا في ذلك ، قال :

((وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

أولاً : علم التأثير.

ثانياً : علم التسيير.

فأما علم التأثير فهو على ثلاثة أقسام:

1. أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور فهذا شرك أكبر ؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً فهو مشركٌ شركاً أكبر ، وقد جعل المخلوق المُسَخَّر خالقاً مُسَخِراً.

2. أن يجعلها سبباً يدَّعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا . كأن يقول : هذا الإنسان ستكون حياته شقاء ؛ لأنه ولد في النجم الفلاني ، وهذا حياته ستكون سعيدة ؛ لأنه ولد في النجم الفلاني . فهذا الشخص اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب وادعاء علم الغيب كفرٌ مُخرجٌ عن الملة لأن الله يقول : قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله (النمل 65)، وهذا من أقوى أنواع الحصر لأنه حصرٌ بالنفي والاستثناء ، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

3 . أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر فهذا شرك أصغر ، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم . (ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه) والقاعدة أن من اعتقد شيئا سببا لشيء ، ولم يجعله الله كذلك فقد تعدى على الله لأن مسبب الأسباب هو الله وحده . كمن يستشفي بربط خيط ما ، ويقول أنا أعتقد أن الشفاء بيد الله وهذا الخيط هو مجرد سبب فنقول له : نجوت من الشرك الأكبر ، ووقعت في الشرك الأصغر لأن الله لم يجعل الخيط سببا ظاهرا للشفاء ، وأنت بفعلك هذا قد اعتديت على مقام الربوبية بجعل شيء سببا لشيء والله لم يجعله كذلك . وهكذا من جعل النجوم سببا لنزول المطر وليست كذلك والدليل ما أخرجه البخاري (801) ومسلم (104) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَب " فحكم على من نسب المطر إلى النجوم نسبة سبب.

الثاني : علم التسيير . وهو على قسمين:

1. أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب ، وإذا كان يُعين على مصالح دينية واجبة كان تعلُمُهَا واجباً كأن يستدل بالنجوم على جهة القبلة.

2. أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية ، فهذا لا بأس به وهو نوعان:

الأول : أن يستدل بها على الجهات ، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً ، والجدي – وهو قريب منه – يدور حوله شمالاً ... فهذا جائز ، قال تعالى : وعلامات وبالنجم هم يهتدون (النحل 16).

الثاني : أن يستدل بها على الفصول ، وهو ما يُعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف ، وأباحه آخرون ، والصحيح أنه جائز وليس فيه كراهه ؛ لأنه لا شرك فيه إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد ، وأنها هي الجالبة لذلك فهذا نوعٌ من الشرك ، أما مجرد معرفة الوقت بها هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء فهذا لا بأس به) **انتهي كلامه .**

ومنازل القمر ٢٨ منزلة خلال الشهر وللشمس ١٢ عشر برجا وهذه الابراج ال١٢ في كل ثلاثة منها فصل من فصول السنة ، فدراسة هذه المنازل وابراج الشمس والنجوم ومتي تطلع وعلي اي هيئة هو علم منازل القمر.

وتعلم منازل القمر جائز علي الراجح ووجه جوازه أنه استدلال بمقتضي التجربة وما اعتيد وقوعه حسا من غير اعتقاد تاثير النجوم فيما يقع لا علي وجه الاستقلال ولا علي وجه التسبب كمعرفة زمن دخول الصيف أو وقت اشتداد الحر ، وزمن دخول الشتاء أو وقت اشتداد البرد ، وكذلك معرفة مواقيت الخسوف والكسوف ، فلا محذور في ذلك ما دام صاحبها لا يدعي العلم بالغيب من طريقها ولا يعتقد استقلالية النجوم والكواكب بإحداث الحوادث **ولا أنها سبب فيها** ، وإنما يتزامن دخول الصيف مثلا في دورة النجم الفلانية ودليل الجواز ان الله امتن علي عباده بذلك فقال (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فامتن عليهم بهذا النوع من العلم فدل ذلك علي جوازه تعلمه.

وبعض السلف حرمه سدا للذرائع كما قال في أثر قتادة السابق:

((وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه" ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق)).

والكراهة عندهم تعني التحريم فلم يرخصوا في تعلم منازل القمر خشية أن يستزل الشيطان العبد فيقع في المحذور فيعتقد أن النجوم فاعلة بذاتها أو أنها سبيل للعلم بالغيب استقلالا او تسببا ، والمنع لأجل سد الذرائع مأخوذ من حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم

(إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا(

ومعناه إذا ذكر ذكر أصحابي بغير ما جاء في فضائلهم وسابقتهم فأمسكوا كما هو معتقد أهل السنة والجماعة مع الأصحاب رضوان الله عليهم ، وإذا ذكر القدر بغير ما جاءت به الأدلة فأمسكوا لان ذلك ذريعة للوقوع في المحرم والخوض فيما ليس لنا به علم لذا فعقيدة الجماعة في القدر السكوت وعدم الخوض فيه بالباطل كما قررته تفصيلا في كتابي " كتاب القضاء والقدر " وهو منشور ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا أي بغير ما جاء به الدليل كالاهتداء بها ومعرفة القبلة كما جاء في القران.

فالنوع الأول والثاني من الأقسام الخمسة السابقة هما من علم التيسير ، والأنواع من الثالث الي الخامس هي علم التأثير المحرم ومنها ما هو كفر وشرك أكبر ومنها ما هو كفر أصغر بحسب ما تقدم بيانه .

٢) وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، ومصدق بالسحر، وقاطع الرحم**"** رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .انتهي .

- و الشاهد من الحديث هو ذكر حكم تصديق السحر ، فإن سألت ما علاقة التنجيم بالسحر ؛ أجبتك بأن التنجيم من السحر ، وقد سبق معنا قول الرسول صلي الله عليه وسلم (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر) فالتنجيم من السحر ولهذا ذكرنا الحديث هنا.

- ومصدق السحر سواء في حكمه عالم السحر و متعلمه وإن لم يعمل به ، و الراضي به ، و طالبه ، و الكاهن ، والعراف ، و المنجم ، ومن يصدقهم ، فكلهم سواء في الحكم بالكفر.

- واعلم - وفقني الله وإياك - أن هذا الحكم علي مصدق السحر أو التنجيم أو الكهانة يحصل ولو صدق مرة واحدة ، ولو عرف أنه حرام وباطل وأن ذلك كله من الدجل والكذب ، فهذا كله لا ينفعه بل

يكفر بهذه المرة التي صدقهم فيها ، وذلك يكون كثيرا من بعض الشباب المقبل علي الزواج تجده - والعياذ بالله - يقول " أريد أن أتفاءل فقط " أو يقول " أعرف أنه حرام لكن أريد أن أعرف هل تناسبني أم لا " أو يقول " لعله يصدق هذه المرة " فقد كفر .

- ومدمن الخمر هو الذي كان يداوم علي شربها حتي مات ولم يتب منها ، وقاطع الرحم أي قاطع القرابة أيا كان نوع هذه القطيعة بدءا من هجرهم وعدم السؤال عنهم ولو هاتفيا وانتهاء بما هو أشد من ذلك ، والله المستعان .

- وكل هؤلاء الثلاثة لا يدخلون الجنة لكن هل هو عدم دخول إلي أبد ، أم إلي أمد ثم يخرجون للجنة ؟

والجواب : أن مصدق السحر بالمعني المتقدم هذا خالد مخلد في النار لأنه كافر كفرا أكبر ، وأما شارب الخمر وقاطع الرحم فهذا تحت المشيئة كما هو معتقد الجماعة في أصحاب الكبائر ، **قلت في كتابي (مسألة الإيمان) في بيان حكم صاحب الكبيرة :**

((حكم مرتكب الكبيرة الذي يسمي شرعا فاسقا بكبيرته مؤمنا بما معه من إيمان أو مؤمنا ناقص الايمان :

المعاصي عامة تنقسم لعدة أقسام فمنها ما هو كفر وشرك، ومنها ما هو كبيرة دون الشرك ومنها ما هو صغائر، فأما الكفر أو الشرك فإن الله لا يغفره إلا إذا تاب منه صاحبه قبل أن يموت وأما لو مات عليه فهو خالد مخلد في النار كما قال سبحانه (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وهذه هي نواقض الإسلام أو المكفرات ، وأما الكبائر التي هي دون الشرك فهي تحت المشيئة إن شاء الله غفر لصاحبها وإن شاء عذبه كما قال تعالي (إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وأما الصغائر وتسمي أيضا اللمم فهذه تكفر بأنواع من المكفرات ؛ فتكفر بالطاعات ومنها الصلوات الخمس يكفر الله بها الصغائر كما قال تعالي (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال صلي الله عليه وسلم (الصلوات الخمس والجمعة الي الجمعة ورمضان الي رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) ، وتكفر بالتوبة والتوبة تكفر كل ذنب فلو أتي إنسان بشرك أكبر طويلا عريضا ثم تاب منه صادقا تاب الله عليه فتأمل كرم

الله عزوجل وإحسانه سبحانه ، ولكن باب التوبة مفتوح إلا أن يغرغر المرء أو تطلع لشمس من مغربها كما قال النبي صلي الله عليه وسلم (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) وقوله سبحانه (يوم يتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمنها خيرا) .

وقد رتب الله تعالي علي بعض هذه الذنوب والكبائر مثل السرقة والزني والقتل وشرب الخمر والعدوان وقطع الطريق رتب عليها حدودا ولو كان مرتكبوها كفارا لما أقيمت عليهم الحدود ولقتلوا مرتدين ؛ فإقامة الحد علي أصحابها دليل علي أنها ليست كفرا وإنما هي كبائر ومعاص ينقص إيمان العبد بقدرها ، ولكن لا يكفر بها بل تقام بحقها الحدود وهذه الحدود مكفرات فيقام علي مرتكبها الحد في الدنيا ولا يقام عليه مرة اخري في الاخرة .

قال ابن تيمية (7 / 298):

(ويقال للخوارج الذين نفوا عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الإيمان، هو لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ولم يقتل أحداً، إلا الزاني المحصن، ولم يقتله قتل المرتد فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة، فدل ذلك على أنه وإن نفى عنهم الإيمان، فليسوا عنده مرتدين عن الإسلام مع ظهور ذنوبهم، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فأولئك لم يعاقبهم إلا على ذنب ظاهر) انتهي .

ودليل ذلك الحديث في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال النبي صلي الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه :

1) " بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلا تَسْرِقُوا ، وَلا تَزْنُوا ، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عنه ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ " فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

2)وعند البخاري رحمه الله عن أبي ذرّ أن النبي صلي الله عليه وسلم قال

(ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات علي ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زني وإن سرق قال وإن زني وإن سرق قلت وإن زني وإن سرق قال وإن زني وإن سرق قلت وإن زني وإن سرق وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر إذا حدث به قال وان رغم أنف أبي ذر)

3)وفي حديث اخر باسناد صحيح عند ابن خزيمة (ان النبي صلي الله عليه وسلم قرا ولمن خاف مقام ربه جنتان فقال ابو الدرداء وان سرق وان زني يا رسول الله فقال وان رغم انف ابي الدرداء)

4)وقد قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وهذه الاية في حق من لم يتب ومات علي التوحيد وهذه الاية تعم كل شرك أصغر او أكبر فالشرك كله لا يغفر، اما لمعاصي والكبائر فصاحبها تحت مشيئة الله ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه كما تقدم في الحديث السايق

5)ولابن أبي حاتم عن جابر رضي الله عنهما قال النبي صلي الله عليه وسلم (ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا الا حلت لها المغفرة من الله تعالي ان شاء عذبها وإن شاء غفر لها)

6)هذا غير احاديث الشفاعة المتواترة في اخراج عصاة الموحدين من النار بما معهم من توحيد

كما قال صلي الله عليه وسلم كما عند أبي داوود والترمذي بالسند الصحيح

(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)

7)و في المسند بسند صحيح عن أم حبيبة عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال

(أرأيت ما تلقي أمتي بعدي وسفك بعضهم دماء بعض وسبق ذلك من الله كما سبق علي الأمم قبلهم فسالته ان يوليني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل)

وهذا دليل علي ان القتل كبيرة لا تصل لحد الكفر وسياتي تفصيل مسالة القتل .

ولكن هذه الشفاعة لأهل الكبائر مقيدة بمن مات علي التوحيد

كما قال صلي الله عليه وسلم

8) (إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة إن شاء الله لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)

فهذه احاديث تبين ان اصحاب الكبائر تحت الوعيد ، وأن من عذب منهم في النار سيخرج منها بشفاعة النبي صلي الله عليه وسلم فبأي حق يكفر الخوارج اصحاب الكبائر ، واذا كانوا كاملي الايمان كما زعمته المرجئة فلم عذبهم الله ؟؟!!!! ولكنهم فساق مسلمون رجحت سيئاتهم علي حسناتهم فدخلوا النار ليطهروا منها ثم مآلهم الي الجنة .

9)وقوله كما عند مسلم (وأما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكنها تصيب أقواما بذنوبهم وخطاياهم حتي إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة فيخرجون ضبائر فيلقون علي أنهار الجنة فيقال لأهل الجنة يا أهل الجنة أهريقوا عليهم من الماء فينبتون كما تنبن الحبة في حميل السيل)

وقوله (ليخرجن قوم من النار بالشفاعة يسمون الجهنميين)

ومن الخطأ عند بعض الشراح أنهم ينهجون منهجا هنا غير محمود فيقولون نُمِرُّ هذه الكبائر المتوعد عليها بعدم دخول الجنة أو تبرأ النبي من فاعلها أو حكم عليه بالخلود في النار أو نحو ذلك من أنواع الوعيد ، فيمرونها كما جاءت ولا يفصلون ولا يبينون نوعي الخلود وهما الأبدي والأمدي ، ولا يبينون ضابط الكبيرة وحكم فاعلها وأدلة ذلك من الكتاب والسنة ، وهذا المنهج مع ما فيه من ترك البيان المثبت بالكتاب والسنة الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة فيه استطالة لألسنة الأشاعرة المفوضة .

- ولهذا ما أحسن ما قاله هنا صاحب فتح المجيد

((وأحسن ما يقال أن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج من ملة الإسلام فإنه يرجع لمشيئة الله ؛ فإن عذبه فقد استوجب العذاب ، فإن غفر له فبفضله وبعفوه وبرحمته)) .

- بقي من الباب شبهات يستدل بها المشركون علي جواز التنجيم ، وردها في التيسير فقال **((وقد** استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم -منها قوله : وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

والجواب أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدي بها الناس في علم الغيب، وإنما المعنى وعلامات، أي :دلالات على قدرة الله وتوحيده. وعن قتادة ومجاهد أن من النجوم ما يكون علامة لا يهتدى إلا بها، وقيل :إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله} :وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ أي :وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضي من الجبال الكبار والصغار يستدل بها المسافرون في طرقهم .وقوله} :وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . {قال ابن عباس في الآية} :وَعَلامَاتٍ {يعني: معالم الطرق بالنهار }وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .قال :يهتدون به في البحر في أسفارهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام بما لا يدل عليه لا نصًّا ولا ظاهرًا، وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم بإبطال علم التنجيم وذمه، منها حديث "من اقتبس شعبة من علم النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر "٥ .الحديث وقد تقدم .وعن عبد الله بن محيريز التابعي الجليل أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال :لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك .فقال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم ."وعن رجاء بن حيوة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال" :مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة ."رواهما عبد بن حميد. فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله .وعن أبي محجن مرفوعًا" :أخاف على أمتي من بعدي ثلاثًا: حيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر ."رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي .وعن أنس مرفوعًا" :أخاف على أمتي بعدي خصلتين تكذيبًا بالقدر، وإيمانًا بالنجوم ."رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب في كتاب "النجوم "وحسنه السيوطي أيضًا.

وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعًا" :مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله :ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله "١ .لفظ البخاري .وعن العباس بن عبد المطلب قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" :لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم ."رواه ابن مردويه .وعن ابن عمر مرفوعًا" :تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا "٢ .وعن أبي هريرة قال" :نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم ."رواهما ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال" :أما بعد: فإن ناسًا يزعمون أن كسوف هذه الشمس، وكسوف هذا القمر، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وأنهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة ."رواه أبو داود. وفي الباب أحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

٢ -ومنها قوله تعالى عن إبراهيم} :فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ.

والجواب :أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات؟! وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم، فنظر إليها، دل ذلك على صحة علم النجوم عنده؟! وكل الناس ينظرون إلى النجوم، فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها. وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظرًا لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا :فما فائدة نظرته في النجوم؟.

قيل :نظرته في النجوم من معارض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله} :قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا {٢ .فمن ظن أن نظرته في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام، وعلم أن طالعه يقضي عليه بالنحس، فقد ضل ضلالاً بعيدًا .ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح أنه

عليه السلام يقول" :لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن "وعدها العلماء قوله} :إِنِّي سَقِيمٌ . {قوله} :بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وقوله لسارة :هي أختي.

فلو كان قوله :إني سقيم أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هي من معاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله} :بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ {، ذكر ذلك ابن القيم .لكن قوله :وعدها العلماء. يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد في عدها. وقد رواه أحمد والبخاري وأصحاب "السنن "وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله قوله: إني سقيم، وقوله :بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة هي أختي "لفظ ابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد مرفوعًا" :في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله، فقال :إني سقيم، وقال :بل فعله كبيرهم هذا، وقال للملك حين أراد امرأته :هي أختي ."وفي إسناده ضعف .وقال قتادة في الآية :العرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم قال ابن كثير: يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكرًا فيما يكذبهم به فقال: إني سقيم، أي :ضعيف)) **انتهي من التيسير بنصه .**

30) باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء - أي من الوعيد -

- هذا آخر الأبواب التي ذكرها الشيخ في أمور يكثر وقوعها وهي من الكفر الأكبر أو الأصغر بحسب اعتقاد صاحبها علي ما سيأتي في الشرح إن شاء الله تعالي .

- وقد ذكرنا في باب الطيرة أن النبي - صلي الله عليه وسلم - قال لا نوء، والمعني نفي تأثير النجوم بذاتها ، ونفي أيضا كونها أسبابا في التأثير بإنزال المطر ، فناسب ذلك إفرادها بالكلام في هذا الباب .

- والاستسقاء طلب السقيا والمطر ، والأنواء جمع نوء وهي النجوم والكواكب ، والنوء مصدر من ناء ينوء نوءا أي نهض وطلع ، ويأتي أيضا بمعني الميل إلي السقوط ، وإنما سمي النجم أوالكوكب نوءا لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ، والمراد بيان حكم طلب السقيا من النجوم أو بسببها أي بجعلها سببا لنزول المطر فالأول من الشرك أكبر والثاني من الشرك الأصغر.

وطلب المطر إنما يكون من الله وحده سبحانه وتعالي ، فمن طلبه من غيره أو جعله سببا له فقد وقع في الشرك الأكبر أو الأصغر بحسب ما سيأتي من البيان، لكن خص هنا الأنواء بالذكر حكاية لواقع مشركي العرب فإنهم كانوا يعتقدون أن النجوم سبب في إنزال المطر ، وبعضهم كانوا يعتقدون فيها الخالقية وأنها بذاتها تأتي بالمطر وهذا اعتقاد فئة من المنجمين الذين يجعلون المفعولات منفعلة عن النجوم وعن حركتها وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة علي تاثيرات الكواكب والروحانيات وأن الكواكب فاعلة مختارة وهو قول الصابئة المنجمين الذين بعث فيهم إبراهيم الخليل عليه السلام .

- والاستسقاء بالأنواء علي ثلاثة أحوال:

الأول:

أن يطلب المطر منها بذاتها وهذا شرك أكبر مخرج من الملة ، وهو شرك في الربوبية لاعتقاد أنها هي المنزلة للمطر ، وشرك أكبر في الألوهية أيضا للتوجه إليها بالدعاء والطلب ، والدعاء هو العبادة ، ومثل ذلك رمي بعض الناس أشياء في النهر إذا انحسر ماؤه وهو من الكفر الأكبر لأنه توجه للنهر بالطلب بالفعل وهي عادة شركية قديمة ولازالت في بعض من ينتسب إلي الإسلام ، ومثلها ذبح بعض القرويين ذبائح وتركها علي رؤوس الجبال طلبا للمطر واستعانة بالجن والشياطين عليه وهذا من الكفر الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله.

الثاني :

نسبة المطر إلي النجوم علي وجه السببية ، فيعتقد العبد أن النوء هو السبب في نزول المطر مع اعتقاده أن نزول المطر بأمر الله عز وجل ، وهذا شرك أصغر لاتخاذ ما ليس بسبب سببا كقولهم مطرنا بنوء كذا ، وراجع ما قلناه في باب من الشرك لبس الخلقة والخيط ، فقد ذكرنا هناك وجه كونه من الشرك الأصغر لا الأكبر ودليل أن اتخاذ ما ليس بسبب سببا من الشرك الأصغر من الأحاديث لا من الأكبر .

وأما إن قصد القائل بقوله (مطرنا بنوء كذا) أي مطرنا في نوء كذا علي أن الباء هنا ظرفية لا سببية فأجازه بعض العلماء لأنه لا اعتقاد بذلك في النجوم وإنما تزامن نزول المطر مع خروج النجم الفلاني كما ذكرنا في باب التنجيم.

وكثير من العلماء رأي الكراهة سدا للذرائع ولأنه شبيه باللفظ المحظور وهو مطرنا بنوء كذا أي بسببه.

الثالث:

نسبة النعمة باللفظ الي غير الله مع اعتقاد أنها أولا وآخرا من الله لكن يخالفه اللفظ ، وما ذاك إلا لتعلق القلب بالسبب عن مسبب الأسباب سبحانه ما أدي إلي نسيان شكر المنعم مع نسبة النعمة للمخلوق ، وهذا ما يسمي بكفر النعمة ، وهو أن ينسب النعمة للمخلوق مع غفلة القلب عن المنعم، مع عدم اعتقاد أن هذا الشيء مستقل في التأثير ولا سببا في نزول المطر ، وهو من شرك الألفاظ الخفيّ وهو شرك أصغر لا يُخرج من الملة.

ومن ذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} قال: هو الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا. هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن.

فهذا وأشباهه من جنس الشرك الأصغر.

- قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في القول السديد::

((لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم، وإضافتها إليه قولا واعترافا بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا، ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله، فإنه الذي تفضل على عباده.

ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق، ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره.

وهذا الموضع من محققات التوحيد، وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه))انتهي كلامه رحمه الله.

1) قول الله تعالي (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)

قال السعدي في تفسيره :

(أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومواليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم) **انتهي** .

فنَزَلَتْ هذه الآية في الأنْواءِ، ونِسْبَة السُّقْيا إلَيْها، والرِّزْقُ: المَطَرُ، فالمَعْنى: ما يَرْزُقُكُمُ اللَّهُ مِنَ الغَيْبِ ،قالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: أجْمَعَ المُفَسِّرُونَ عَلى أنَّ الآيَةَ تَوْبِيخٌ لِلْقائِلِينَ في المَطَرِ، هَذا بِنَوْءِ كَذا وكَذا، وهَذا بِنَوْءِ الأسَدِ، وهَذا بِنَوْءِ الجَوْزاءِ، وغَيْرُ ذَلِكَ ، فينسبون ذلك إلي النجوم وينسون أو يتناسون شكرَ المنعم وتوليةَ الأمر له سبحانه ، وتقدم في الحالات الثلاث السابقة أن هذه النسبة يختلف حكمها بحسب اعتقاد قائلها.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه:

"قال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} .

٢) وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. "

وقال: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب" رواه مسلم.

- والأربع المراد بها أربع صفات أو خصال من خصال الجاهلية ، وليس المراد الحصر في هذه الأربع وإنما المراد العد.

- والجاهلية ذكر معناها في كتابي (مسألة الإيمان) فقلت :

((والجاهلية هي الحال التي كان عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله ورسله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك ،نسبة الي الجهل وعدم العلم أو عدم اتباع العلم .

قال ابن تيمية (فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا ؛ فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا فإن قال خلاف الحق عالما بالحق او غير عالم فهو جاهل أيضا فإذا تبين ذلك فالناس قبل بعث الرسول صلي الله عليه وسلم كانوا في جاهلية منسوبة إلي الجهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهو من الجاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد مبعث الرسول صلي الله عليه وسلم فقد تكون في مصر دون مصر ، كما هي في دار الكفار وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية ، وإن كان في دار الإسلام ، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث النبي صلي الله عليه وسلم ؛ فإنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين علي الحق إلي قيام الساعة، والجاهلية المقيدة قد توجد في بعض ديار المسلمين وفي كثير من الأشخاص المسلمين كما قال صلي الله عليه وسلم (أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأنساب والطعن في الأأساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة علي الميت) وقال لمن عيّر أحدَ الصحابة بأمه (إنك امرؤ فيك جاهلية) ونحو ذلك) **انتهي** .

وملخص ذلك : أن الجاهلية نسبة الي الجهل وهو عدم العلم وأنها تنقسم الي قسمين :

1) جاهلية عامة : وهي ما كان قبل مبعث الرسول صلي الله عليه وسلم وقد انتهت ببعثته

2) جاهلية خاصة ببعض الدول وبعض البلدان وبعض الأشخاص ، وهذه لا تزال باقية وبهذا يتضح خطأ من يعمِّمون الجاهلية في هذا الزمان فيقولون جاهلية القرن العشرين وما شابه ذلك والصواب أن يقال جاهلية بعض هذا القرن أو جاهلية غالب هذ الزمان واما التعميم فلا يصح ولا يجوز ؛ لأنه ببعثة النبي صلي الله عليه وسلم قد زالت الجاهلية العامة) **انتهي** .

- و لا يتركونهن أي لا تزال في أفراد من أمة النبي صلي الله عليه وسلم ولا تشمل الأمة كلها لما صح عن صلي الله عليه وسلم من قيام طائفة من أمته علي الحق ظاهرين بالتوحيد الصحيح والعقيدة الصافية السليمة .

- والفخر بالأحساب أي التفاخر والتعالي علي الناس بشرف المرء نفسه أو بشرف آبائه وأجداده وما يعده لهم من مناقب وفضائل ومآثر ، وذلك جهل عظيم إذا لا شرف إلا بالتقوي ، وقد جاء الإسلام بمحو هذه الأمور بتمحيض كرم المرء بتقوي الله عز وجل وأن كل شرف ونسب وكثرة مال وغيرها لا قيمة لها إذا لم يكن صاحبها من المتقين فقال سبحانه (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال تعالي (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفي إلا من آمن وعمل صالحا) ، وقال صلي الله عليه وسلم (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) ، وقال فيما صح (إنَّ اللهَ قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليةِ وفخرَها بالآباءِ، مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ أنتم بنو آدمَ وآدم من تراب لَيَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوامٍ إنما هم فحمٌ من فحْمِ جهنمَ أو لَيكونُنَّ أهونَ على اللهِ من الجِعْلَانِ التي تدفعُ بأنفْها النَّتِنَ).

- والطعن في الأنساب : الوقوع فيها بالذم والعيب ، أو بالقدح في نسب أحد الناس والشك فيه فيقال ليس هو ابن فلان ، أو بعيب والديه بما لا يجوز و ما يستوجب حدا في ظهره ، أو بتعييره بما في آبائه من المطاعن ، أو عيب القبيلة والبلد وأهل القرية ونحو ذلك مما يقع فيه كثير من المخذولين الفارغين ؛ ولهذا لما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي

ذر: "أعيرته بأمه؟! إنك امرؤٌ فيك جاهلية" متفق عليه؛ فدل ذلك أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه.

- والاستسقاء بالنجوم تقدّم معناه ، وهو موضوع الباب ، والمراد بالاستسقاء بالأنواء في هذا الحديث النوع الثاني من الأقسام السابقة الذي هو هو شرك أصغر ، ليس المراد بها حالة الشرك الأكبر لأن النبي صلي الله عليه وسلم قال أربع في أمتي أي أمة الإجابة ، ومن اعتقد أن النجوم تنزل المطر بذاتها أو دعاها طالبا للمطر منها فهذا كافر كفرا أكبر في الربوبية والعبادة فليس من أمة النبي صلي الله عليه وسلم.

- والنياحة والنوح صوت الحمام والمراد الصياح و رفع الصوت ، وإظهار الجزع بالموت ، وتكلف ذلك ، تسخطا علي قضاء الله وقدره ، وهو من إساءة الأدب مع الله سبحانه ، فهذا لا يفعله المملوك مع سيده فكيف يفعله مع ربه وخالقه وإلهه الذي لا إله له سواه الذي كل قضائه عدل. !

- وتكون النياحة من الرجال أيضا كالنساء لكن نسبت النياحة لهن في الحديث لأنه فيهن أكثر دون الرجال ولنقص عقلها ودينها.

- وباب التوبة مفتوح لكل عاص ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها، وقال صلي الله عليه وسلم (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) فواجب علي كل مسلم ومسلمة أن يوصوا ناهين عن النياحة وضرب الخدود وشق الجيوب لا سيما إذا علموا ورأوا انتشار ذلك بين الناس وإلا فهم كالمقرين لذلك فيستحقون هذا العذاب ، أما إذا قاموا بواجب التذكير والنصيحة ثم بكوا عليه فلا يضره ذلك؛ لأنه قد أدي ما يجب عليه.

- والسربال القميص ، والقطران مادة تنتج من شجرة معينة شديدة الحرارة والاشتعال كانوا يضعونها علي الإبل الجرباء لعلاجها من الجرب.

- والدرع هو الثياب التي تلي الجسد ، فصفة عذاب هذه النائحة يوم القيامة أنها تلبس درعا من جرب يصيبها بحكة شديدة تشمل جسمها كله وتأكله ، ويضاف لذلك سربال من قطران يحرق جسدها ولا

يحرق الحرب فيجمع لها بين الحكة الشديدة والحرارة العظيمة نسأل الله العفو والعافية ، وهذا دليل علي أن النياحة من كبائر الذنوب .

٣) ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: **"**صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب.

- لما انصرف أي سلم من صلاته وكان يظل متوجها للقبلة يستغفر ثلاثة ويقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ثم يتوجه للمصلين.
- والكفر المراد به هنا هو الكفر الأكبر إذا اعتقد استقلال النجم بإنزال المطر عن مشيئة الله وإذنه وقضائه الكوني.

ويكون كفرا أصغر إذا اعتقد سببية النجم للمطر وقد تقدم بطلان ذلك ، وكذلك هو شرك أصغر إذا لم يعتقد استقلالا في التأثير ولا تسببا لكن نسب المطر للنوء نسيانا لفضل الله وتعلقا بغيره سبحانه ولو أقر أنه من الله ، وهذا من الغفلة وضعف التوحيد .

31) باب قول الله تعالي (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونـهم كحب الله)

- وهذا أول الأبواب التي تتعلق بالأعمال القلبية كالحب والخوف والتوكل والرجاء والصبر ، وما يتعلق بها من توحيد أو شرك ، والمراد من هذا الباب بيان الفرق بين محبة العبادة أوالعبوديّة وبين المحبة الشركية .

- والمحبة هي الوقود الذي يدفع الإنسان لما يريد ، فما من حركة ولا سكون للإنسان إلا وهي ناتجة عن محبته لذلك وإرادته له ؛ فالإنسان إنما يمضي لما يريد لأجل أنه يحبه سواء أحب خيرا وطاعة أو شرا ومعصية ، إلا أن دين الإسلام والتوحيد الذي رضيه الله لخلقه دينا يوجب علي العبد أن تكون محبته تابعة لمحبة الله عز وجل ، وهذا يحتاج إلي جهاد من العبد حتي يحب ما يحبه الله ومن يحبه ولو كان في ذلك معارضة لهواه الذي يطلب غير ذلك ؛ كحب العبادة مع ما قد يعتريها من المشقة ، وكمحبة الموحدين المسلمين وإن ظلموك واعتدوا عليك ، ويجب أن يبغض ما يبغضه الله ومن يبغضه ولو كان في ذلك معارضة لهواه كبغض المشركين الكافرين وإن أعطوك وأحسنوا إليك ، ولهذا كانت المحبة من العبادات التي يحبها الله تعالي ، أما إذا عكس الأمر فصار العبد يحب ما يكرهه الله ويبغض ما يحبه فليعلم أن في توحيده خللا عظيما .

- فمن أحب غير الله محبة متضمنة للخضوع والانكسار مع الرجاء والخوف - وهي محبة العبادة - فقد وقع في الشرك الأكبر كمحبة المشركين آلهتهم هذه المحبة كحب الله أو أشد - والعياذ بالله -

وهؤلاء علي درجات بعضها أشد من بعض وأكفر ، وهي علي ثلاث درجات :

الأولي : من يحب الند ويحب الله.

الثاني : من يحب الند أكثر من حب الله ؛ ففي قلبه حب الند وحب الله إلا أن حب الند أكبر.

الثالث : من يحب الند وحده.

وكلهم مشركون شركا أكبر مخرجا من الملة لكن شركهم متفاوت ، وما سبق هو ترتيبها من الأدني إلي الأعلي في الشرك والكفر .

وإن أحب غير الله لا محبة العبادة ولكنها محبة تعارض وتنقص محبةَ الله ومحبةَ ما يحبه سبحانه فهذا من الشرك الأصغر كمن يطيع غير الله في معصية الله.

فمن أحب الله وحده وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره فهو مشرك شركا أكبر سواء كان حبه مساويا أو أكبر أو تمحض للند وحده .

والمحبة في الله هي محبة أصيلة لله ، فتحبه سبحانه ولا تشرك في عبادة المحبة أحدا معه سبحانه ، و(في) في قولك لفلان أحبك في الله ظرفية فيكون المعني أني أحببتك في الله لأنك تحب ما يحبه الله وتبغض ما يبغضه الله فأنا وأنت منغمسون في حب الله وحب ما يحبه الله والحامل علي هذه المحبة الامتثال لأمر الله سبحانه.

وأما المحبة لله فاللام فيها تعليلية سببية فهي محبة تابعة لحب الله أي لأجله فما حبي لفلان إلا بسبب حبي لله وحده ولمحابّه سبحانه ولهذا أحببت فلانا لأنه قائم بأمر الله منتهيا عن ما نهي عنه وهذا يحبه الله فأحببتك لأجل حب الله لأفعالك ولدينك .

فحب التأله - أي التعبد - كله لله تعالي ، وإن أحب العبد أحدا فإن حبه يكون تابعا لحب الله سبحانه وتعالي.

وهذا مقام عظيم يفتقر فيه العبد إلي تخليص قلبه من الالتفات إلي أسباب المحبة التي تحمل عليها كالمؤانسة ، أو المشاكلة في الطباع ، أو الموافقة في الأعمال ، أو غير ذلك من الأمور التي تنشئ المحبة فإنه ينبغي تعطيلها إلا إذا كان الحامل عليها هو الحب في الله سبحانه فإن الدوران مع هذه الأسباب منقطع إن لم يكن الموجب لذلك هو المحبة في الله سبحانه وتعالي ، فمن أحب أحدا لأنسه وطبعه إن لم يكن حبه في الله مع أنسه لطبعه فإن تلك المحبة تنصرم حبالها وستنقطع أخبارها أما المحبة التي تكون لله تعالي وفي الله فحقيقتها أن تبقي ثابتة لا تتغير ولو بعدت المسافات بل لو لم تره بعينك ؛ لأن منشأها الإيمان والعمل الصالح لا المشاكلة ولا المخالطة ، فحقيقة المحبة أن تزيد في طاعة الله وتنقص بمعصية الله أما أن تزيدها المؤالفة والمشاكلة والموافقة مع وقوع المخالفة والعصيان لأمر الله ورسوله فالدعوي المنعقدة بينهما إذن ليست لله .

قال العصيمي في شرح فتح المجيد (ومحبة الرسول - صلي الله عليه وسلم - هي من محبة الله ، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته سبحانه ؛ لأن الله أمر بها ، فما أخبر الله به راجع إلي موافقة أمره فيكون من جملة محبة الله سبحانه ، وإن كانت هذه المحبة لغير الله فهي منقصة لمحبة الله سبحانه ، و يصدق هذه المحبة بأن تكون كراهته لأبغض الأشياء إلي محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهية إلقائه في النار أو أشد ، فهو يري أن ما يصل للقلب من الألم بسبب حب غير الله كحب الله أو أشد أو حب من يبغضه الله أو من يبغضه الله أعظم مما يصل إلي البدن بألم النار إذا ألقي فيها ؛ فلا يعدل بألم النار شيئا في مقابل ألم الكفر ؛ لأن من امتلأ قلبه بمحبة غير الله تفرق شمله وضعفت همته وضعف سيره وانقطع قلبه فإن أشد أنواع العذاب عذاب القلب ولهذا كانت النار تصل إلي القلب كما في قوله تعالي في سورة الهمزة (نار الله الموقدة التي تطلع علي الأفئدة) ولهذا قال ابن القيم (إنما جعلت النار لإذابة القلوب القاسية) وقد ذكر في القران وصول النار الي القلب لأمرين : أن القلب أرق ما يكون ؛ فألمه بالعذاب أشد ، ولأن مبتدأ إرادة المعصية يكون منه)انتهي .

قال عز من قائل (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

قال في القول المفيد :

(" من" تبعيضية، هي ومجرورها خبر مقدم، و "من يتخذ" مبتدأ مؤخر.

قوله: "أندادا": جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: " يحبونهم كحب الله ": أي: في كيفيته ونوعه: فالنوع أن يحب غير الله محبة عبادة. والكيفية: أن يحبه كمحبة الله أو أشد، حتى إن بعضهم يعظم محبوبه، ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار له، فلو قيل: احلف بالله; لحلف، وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند لم يحلف، وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: " كحب الله ": للمفسرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها; أي: يحبونهم كحبهم الله، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله، فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب.

الثانية: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين: أي: كحب المؤمنين لله; فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله (وهذا وإن احتمله اللفظ، لكن السياق يأباه; لأنه لو كان المعنى ذلك; لكان مناقضا لقوله تعالى فيما بعد: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ} ، [البقرة: من الآية١٦٥] ، وكانت محبة المؤمنين لله أشد; لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك; فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد؛ نظرا لقوله: {أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ} ، فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين؛ وأحدهما خال منه تماما، ومنه قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} ، [الفرقان:٢٤] ، مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} ، [النمل: من الآية٥٩] ، والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة، ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحدا كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر، المخرج عن الملة، وهذا يوجد في بعض العباد، وبعض الخدم؛ فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله، ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً})) **انتهي كلامه .**

قال ابن القيم في النونية:

وحياة قلب العبد في شيئين من ... يرزقهما يحيا مدى الأزمــــــان.

في هذه الدنيا وفي الأخرى يكو ... ن الحي ذا الرضوان والإحسان.

ذكر الإله وحبه من غير إشـ ... ـــــراك به وهمـــا فـممتنـــــعان.

من صاحب التعطيل حقا كامتنا ... ع الطائر المقصوص من طيران.

- وهناك قول ثالث في تفسير آية المحبة وهي أنها في طاعة الرؤساء طاعة متضمنة للخضوع والتعظيم ويؤيده الآية التي تليها " إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا " وهي الاتباع في تحريم الحلال و تحليل الحرام ، ولو كانت من الاتباع العملي لا الاعتقادي إلا أنها صاحبها حب متضمن لخضوع وتعظيم فهي من الشرك الأكبر في المحبة وإن كانت الطاعة في ذلك دون استحلال شرك أصغر كما سأتي في باب (من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله وتحريم أحل الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله).

- وهذه الآية دليل علي أن محبة العبودية توحيد وأن من جعلها او صرفها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر ، كما يفعله كثير من الصوفية مع شيوخهم الذين يسمونهم الأولياء فهم يحبونهم محبة مصحوبة بخضوع وتعظيم وخوف ورجاء وهذا من الشرك الأكبر ، وقد يستحلون الحرام ويحرمون الحلال باستحلالهم وتحريمهم علي ما سيأتي بيانه في باب من أطاع الأمراء والعلماء في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل فقد اتخذهم أربابا من دون الله ، ومنهم من يحلف بالله كاذبا دون حرج لكن يخشي أشد الخشية من الحلف بشيخه كاذبا وهذا من الكفر الأكبر لأنه عظم وخاف الولي المحلوف به أشد من تعظيم الله وخشيته .

- وعلي هذا فالمحبة تنقسم إلي قسمين:

القسم الأول :

محبة تتعلق بالله عز وجل ، وهذه المحبة في هذا القسم علي أنواع باعتبار المحمود منها والمذموم ، وهي:

أولا : محبة الله المقترنة بالخضوع والخوف والرجاء والتعظيم فهذا النوع خالص لله تعالي وخاص به سبحانه من أشرك فيها غيره فقد وقع في الشرك الأكبر كما تقدم.

ثانيا : المحبة في الله أو لله ، وقد تقدم معناها أنها محبة ما يحبه الله ومن يحبه لقيامه بأمر الله .

ثالثا : المحبة مع الله ، وهي علي أقسام باعتبار حقيقتها وحكمها ، وهي :

أ . أولها محبة عبودية مع الله بالمعني المتقدم أن يُحب غير الله محبة خضوع وخوف ورجاء وتعظيم فهذا شرك أكبر ، كصنيع الصوفية مع شيوخهم الذين يسمونهم الأولياء.

ب . محبة المعاصي التي نهي الله عنها ، وهذا داخل في حب ما يبغضه الله ، فإن كانت المعصية المحبوبة شركا أكبر كحب صرف العبادة لغير الله كحب طلب المدد من الصالحين ونحو ذلك فهذا شرك أكبر ، وإن كانت المعصية المحبوبة دون الشرك كحب شرب الخمر ونحو ذلك فتكون من الكبائر إن لم يستحلها وإلا فكفر أكبر مع استحلالها ، وإن أحب معصية صغيرة من الصغائر كان محرما ، وهكذا.

ج . حب من يعصي الله ، وهذا داخل في حب من يبغضه الله ؛ فإن كان المحبوب العاصي كافرا فإن كانت محبته لدينه فهذا كفر أكبر لتسوية المحب بين الشرك والتوحيد وهذا نجده في دعاة وحدة الأديان المجوزين للشرك أو المستحسنين له أو المفضلين له علي التوحيد أو المُسوِّين

بين الشرك والتوحيد وأنه لا بأس به - عياذا بالله - أو غير المتبرئين منهم وغير المكفرين لهم ، وهذه هي الموالاة الكبري الكفرية ، والموالاة هي القرب والنصرة.

ومن هذا أيضا موالاة المشركين أومناصرتهم أومظاهرتهم أومعاونتهم علي المسلمين ، ولها صور :

- معاونة المشركين علي المسلمين بالمال أو السلاح أو الرأي.

- تمني نصرتهم علي المسلمين ولو لدنيا لا لدين.

- الالتحاق بديار الكفر رغبة فيهم عن المسلمين ، والواجب التبرؤ منهم ومجانبتهم وإظهار الولاء للمسلمين .

- مودتهم لدينهم.

- عدم تكفيرهم أو الشك فيه أو التوقف في تكفيرهم أو تصحيح مذهبهم .

- التشبه المطلق بهم .

وأما إن أحبه لا لدينه لكن لدنيا للمشاكلة والموافقة في الطباع أو السكن أو العمل فهذا من الموالاة الصغري وهي من أعظم الكبائر كما قال تعالي (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة) ، وقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) وقال تعالي (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) وقال عز من قائل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) ، وقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) .

ومن صور هذه الموالاة الصغري المحرمة التي هي دون الشرك:

- محبتهم ووادتهم والقرب منهم لدنيا لا لدين .

- التشبه بالكفار في العادات والأخلاق كالمأكل والملبس والمشرب والمنكح وغير ذلك.

-اتخاذهم بطانة و تصديرهم وإكرامهم وتقديمهم علي المسلمين في المجالس والاحتفاء بهم أو .

- الركون إليهم والجلوس معهم والاستئناس بهم واتخاذهم أصحابا.

- تهنئتهم بأفراحهم وأعيادهم لا عن رضا بهم وبدينهم وإلا فهو من الكفر الأكبر.

- توليتهم وتكليفهم ببعض المناصب المهمة حتي يكون لهم سلطان علي المسلمين ، والواجب إقصاؤهم وإظهار العداوة والبغضاء لهم .

- التجسس علي المسلمين لأجلهم لأمر من أمور الدنيا.

- الإقامة في بلادهم لغير ضرورة.

- السفر إلي بلادهم للتنزه.

- مدحهم لما هم عليه من تقدم في بعض العلوم المادية، والإعجاب بهم.

- التسمي بأسمائهم كما هو حاصل الآن بكثرة لا سيما أسماء البنات .

وهذه الموالاة المحرمة وسيلة للموالاة المخرجة من الملة .

د . حب يشغل عن حب الله وحب ما يحبه أو ينقصه ، كحب غير الله حبا يؤدي لمعصية الله ، أو حبا يشغل عن أداء أوامره والانتهاء عن نواهيه ، وذلك كحب الزوجة أو الصديق أو نحوهما حبا يشغل عن الائتمار بأمر الله .

القسم الثاني : محبة لا تتعلق بالله عز وجل ، وهذه علي أربعة أقسام :

أولا : حب فطري طبعي كحب الأكل أو الشرب ونحوهما.

ثانيا : حب إشفاق ورفق كحب الأولاد ، وحب إجلال واحترام كحب الوالدين.

ثالثا : حب الألفة والخلطة كحب الزوجة أو الصديق.

رابعا : محبة الإحسان الدنيوي والمحسنين.

وهذه الأنواع أيضا إن أدت العبد إلي معصية الله كأن تؤديه إلي فعل ما حرم الله أوترك ما أوجبه عليه فهي حينئذ من المحبة مع الله المحرمة التي تقدم حكمها ، وإلا فهي مباحة ؛ للحديث (لا يؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) فدل علي أنها من المحاب المباحة إلا إذا عارضت محبة الله ورسوله وهذه المعارضة تكون إذا أدت هذه المحبة إلي معصية الله من فعل محرم أو ترك واجب ، كالانشغال بالزوجة والأولاد عن الصلاة ، أو طاعة الوالدين في معصية الله ، ولهذا قال تعالي (إنما أموالكم واولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) وقال (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم).

وقد ترتفع هذه المحابّ من درجة المباحات إلي المستحب المأجور عليه إذا احتسبها العبد لله تعالي أو استعان بها علي طاعة الله .

- ومن أهل العلم من قسم المحبة إلي محبة العبادة وهي المصحوبة بالخضوع والتعظيم ، ومحبة هي نفسها عبادة كالمحبة في الله ولله ، ومحبة أمور الدنيا وتكون حينئذ من الوسائل التي لها أحكام المقاصد.

ومنهم من قسمها إلي محبة عبادة أو محبة العبودية المصحوبة بالخضوع والتعظيم ، ومحبة إجلال وتعظيم ، ومحبة إشفاق ، ومحبة فطرية جبلية.

والخلاصة أن محبة الله توحيد ، وهي أصل كل محبة مشروعة ، فكل ما دون الله يحب لله ولا يحب مع الله ، حب الأنبياء والرسل والملائكة يحبون لله لا مع الله سبحانه فلا يحب مخلوق مع الله وإنما محبته تابعة لمحبة الله ، وأعظم حب بعد حب الله حب رسول الله صلي الله عليه وسلم كما سيأتي في أدلة الباب.

وبفهم هذا التقسيم تنضبط لك أحكام باب المحبة .

1) قال تعالي {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}.

- وهذه الآية دليل علي ثلاثة أمور :

أولا : أن محبة الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والتجارة مباحة بشرط ألا تؤدي إلي محرم بأن تقدم علي محبة الله ورسوله بحيث يحصل العصيان ؛ وذلك لقوله تعالي (أحب إليكم من الله ورسوله) فإذا لم تكن كذلك فهي مباحة ، واعلم أن المحبة التي للمشاكلة والمؤانسة والموافقة في العمل أو السكن ونحو ذلك إن لم تكن لله بمعني أنها لأجل ذلك مع وجود المخالفة فهذا محرم وهو من نواقص التوحيد ، وأما مع عدم المخالفة الظاهرة لكن محبة لمجرد الموافقة في الأعمال فهي جائزة لكن لا أجر فيها ، والمستحب ألا توجد أصلا إلا في الله ولله لا لدنيا ، وأما إذا وجدت مع وجود المخالفة فهي محرمة .

ثانيا : دلت علي أن محبة الله ورسوله واجبة.

ثالثا : وأن تكميل هذه المحبة بحيث تكون فوق كل المحابّ أن ذلك واجب .

2) عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" أخرجاه .

- وهذا الحديث يدل علي نفس الأمور الثلاثة التي تقدم بيانها في الآية السابقة.

- والمراد بمحبة النبي صلي الله عليه وسلم أن تكون كل المحاب الدنيوية تابعة لمحبته بحيث لا يحبها العبد محبة يقدمها علي أوامره ونواهيه.

- ونفي الإيمان هنا نفي لكمال الإيمان الواجب إلا إذا لم يحب النبي أصلا فهذا نفي لأصل الإيمان لا لكماله وهذا كفر أكبر مخرج من الملة.

- فقول بعضهم لزوجته مثلا أنه يعبدها ويعني أنه يحبها محبة شديدة فإن قصد محبة العبادة كفر ، وإن أراد المحبة الفطرية لزوجته لكن قدمها علي محبة الرسول صلي الله عليه وسلم فهذا نقص في كمال الإيمان ، ومثله أن يقول أنها أحب إليه من جميع الخلق الأحياء والأموات فهذا كذلك لانه يدخل في الاموات نبينا صلي اللت عليه وسلم.

- وأما عدم محبة بعض الناس لبعض شرائع الإسلام كالتعدد للمرأة فهذا نقول فيه أن عدم المحبة وهو الكره إن كان كرها طبعيا لما يلحقها من ضيق ، ومثله كره الجهاد لما يلحق النفس فيه من المشقة فهو كره طبعي فهذا محرم لكن ليس كفرا ، بخلاف ما لو كان الكره دينيا لنفس الشرائع فهذا كفر بالشرائع ، والكفر بشريعة واحدة كفر بجميع الشرائع وهو مخرج من الملة .

3) **ولهما عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" وفي رواية: "لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى ... " إلى آخره.**

- وهذا الحديث شمل أنواع المحاب التي تقدم بيانها بمعرفة أقسامها وأحكامها ، فمحبة الله فيه تحصيل لأصل الإيمان فبدونها لا يكون العبد مؤمنا أبدا وهذه هي محبة العبودية المتضمنة للخضوع والتعظيم ، ومحبة الرسول صلي الله عليه وسلم من محبة الله فلا يكون العبد مؤمنا إذا انعدمت من قلبه ، و قوله أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قي الأمر بتحقيق كمال المحبة الواجبة بعد تحقيق أصلها ، وقوله أن يحب المرء لا يحبه الا لله فيه تحقيق محبة غير الله ورسوله في الله ولله ، وقوله أن يكره أن يعود للكفر فيه الأمر بكره العاصي والمعصية وهي لله تعالي فيكره العبد ما يكرهه سبحانه ومن يكرهه من العصاة .

- فهذا الحديث كالسور الذي سوَّر هذه العبادة العظيمة عبادة المحبة بسور رباعي وهو :

أ . ((تحصيل أصل المحبة))أصل المحبة وهو حب الله ورسوله الحب المنافي للكره والسخط والكفر.

ب . ((تحقيقها وتكميلها)) بحيث تكون محبة الله ورسوله في قلبه أعلي من كل محبة بل كل المحاب تابع لها.

ج . ((تفريعها))بحيث يكون كل محبوب سوي الله تعالي فمحبته له إنما هي في الله ولله.

د . ((دفع ما يُضادّها)) فيكره العبد كل ما ومن يكرهه الله ورسوله من الأفعال - أي المعاصي بأنواعها - وفاعليها .

- وقوله عليه الصلاة والسلام "أن يكره أن يعود في الكفر" أي يصير لأن "عاد " من اخوات صار ولا يلزم أن يكون كافرا فأسلم بل الحديث عام بمعني أن يكره أن يكفر ابتداء أو يعود في كفر قد تاب منه وأسلم ، وإلا لكانت حلاوة الإيمان لا ينالها إلا من كن كافرا ثم أسلم فكره أن يعود فيما كان عليه ، فنقول بل لو ولد مسلما فكره أن يرتد فكذلك فالحلاوة لا تقتصر علي الاول دون الثاني .

4) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك؛ وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا" رواه **ابن جرير. وقال ابن عباس في قوله تعالى: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} قال: "المودة".**

- هذا الأثر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فيه تقرير ما سبق من أن الحب والبغض تابع لحب الله وبغضه ، فتحب المرء لا تحبه إلا الله وفي الله لانه قائم بأمر الله وهذه المودة وهذا الحب ما دام لله فلا يؤثر فيه بُعد ولا تنقصه دنيا ، فلا يؤثر فيه بعد ولا قرب ولا يؤثر فيه إحسان ولا إساءة ، ومن الخطأ أن يقول أحدهم لأحدهم أحبك في الله وهو لا يعلم عن صلاحه شيئا إلا إذا قصد أصل المحبة التي هي لكل مسلم فهذا نعم ، ودرجة هذه المحبة تزداد بزيادة صلاح المحبوب وتنقص بنقصه ، فهذا هو ضابطها ، فراقب نفسك وجاهد فإن المحبة عبادة لله سبحانه ، وكلما قوي التوحيد في قلب العبد صار ذلك طبعا فطريا للعبد يشعر به من نفسه.

- وكذلك البغض فيكون بغضا تاما لا يتخلله مودة أبدا وهذا للكفار ، وأما الفاسق المسلم فهذا يحب من وجه ويبغض من وجه ، قال ابن تيمية ((وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه؛ والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه؛ والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور، وطاعة، ومعصية، وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة) انتهي .

فالخلاصة أن حقيقة الحب في الله ألا ينقص بالجفاء وألا يزيد بالبر.

- والموالاة هي محبة وزيادة ، فهي المحبة المصحوبة بالنصرة والقرب ، فهذا دأب الموحد أن ينصر دعاة التوحيد وأن يؤازرهم ويؤيدهم في دعوتهم ، وألا يخذلهم ، وسلفنا في ذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ألم يبايع الداخلين في الإسلام فكان مما أخذ عليهم البيعة فيه ما رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن في شأن بيعة العقبة الثانية

((قالوا علام نبايعك ؟ فقال : علي أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وأن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم فقال جابر رضي الله عنه محذرا لهم من خطورة التخاذل عن نصرة الرسول صلي الله عليه وسلم : إما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله ، وإما أنتم تصبرون علي ذلك فخذوه وأجركم علي الله ، فإن إخراجه مفارقة العرب كافة وقتل خياركم))

ومعلوم هجران الرسول صلي الله عليه وسلم لمن تخلف في غزوة العسرة فلم ينصروه

حتي ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. !

ومعلوم كيف نكل بالمتخاذلين عن نصرته يوم أحد ! ، وفي الأحزاب كذلك

ولما أرسله الله نادي في قريش (من ينصرني ويؤويني حتي أبلغ رسالة ربي وله الجنة فإن قريشا قد منعوني) .

وقد أخذ الله الميثاق علي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إذا أرسل إليهم محمدا صلي الله عليه وسلم أن ينصروه ، فقال في سورة آل عمران :

((وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ))

قال ابن عباس وعلي رضوان الله عليهم في تفسيرها كما عند الطبري وغيره :

((ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه))

وفي الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه قال قال صلي الله عليه وسلم

((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علي الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتي يأتي أمر الله))

فحذر من التخاذل مع دعاة الحق والسنة ، ولهذا إن لم تكن من ناصري السنة بنفسك فانصر أهلها وكن لهم عضدا وناصرا وقف بجوارهم ، ولا تكن من المخذلين المخذولين !

- ومن سلم قلبه لله واستتبع ذلك فصار حبه وبغضه تابعا لحب الله وبغضه لا مخالفا ، فقد نال ولاية الله ، فإن ولاية الله لا تنال بالدعاوي والجنسيات والنسب والحسب وإنما تنال بتقوي الله تعالي ، ومن شأنها العمل بالواجبات والانتهاء عن المحرمات ، والتقرب إلي الله بالنوافل ، وتجديد التوبة باستمرار حتي لا يبقي علي العبد شيء .
- وبذلك يذوق العبد حلاوة الإيمان وهو ذوق حسي لا معنوي فقط ، وقد خرجه مسلم ، وعنده في رواية : " فقد وجد طعم الإيمان " ، وجاء في رواية : " وجد طعم الإيمان وحلاوته " ، قال ابن

رجب في شرح صحيح البخاري في كلام طويل له تحسن مطالعته ((فهذه الثلاث خصال من أعلى خصال الإيمان ، فمن كملها فقد وجد حلاوة الإيمان وطعم طعمه ; فالإيمان له حلاوة وطعم تذاق بالقلوب كما تذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم ; فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقوتها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقوتها.

وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته ، فإذا سقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك ، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة ; لغلبة السقم عليه . فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان إذا سلم من أسقامه وآفاته ، فإذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ ، ومتى مرض وسقم لم يجد حلاوة الإيمان ، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي.

ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " ؛ لأنه لو كمل إيمانه لوجد حلاوة الإيمان ، فاستغنى بها عن استحلاء المعاصي.

سئل وهيب بن الورد :هل يجد طعم الإيمان من يعصي الله ؟ قال : لا ، ولا من هم بالمعصية.

وقال ذو النون :كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه ، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

فمن جمع هذه الخصال الثلاثة المذكورة في هذا الحديث فقد وجد حلاوة الإيمان وطعم طعمه))

انتهي .

- وقوله عليه الصلاة والسلام "ذاق حلاوة الإيمان "دليل علي أن حلاوة الإيمان حسية ومعنوية قلبية لا معنوية فقط ؛ فإن الذوق هو وجود الطعم بالفم ولهذا جاء في رواية ذاق طعم الإيمان ،

وقيل أن هذ الحلاوة لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وطمأنينة القلب وانشراحه بما جاء به الرسول ، وقالوا هي حلاوة حسية أعلي من حلاوة المطعوم بالفم بل أشد لأن حلاوة القلب أعظم إحساسا من حلاوة الفم فيتلذذ بالطاعات ويترك المعاصي والمخالفات فحلاوة القلب هي الجالبة لانتقال الحلاوة لغيره من أعضاء البدن .

وقد عبر بالحلاوة لأن الله ضرب للإيمان مثلا بالشجرة كما في آية سورة إبراهيم ، فالكلمة كلمة الإخلاص والشجرة الإيمان وأغصانها الأمر والنهي ، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير واغصانها عمل الطاعات ، وحلاوة الثمر جني الثمر ، وغاية كمالة تناولها .

- وقد ثني الضمير في قوله (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) مع أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد اعترض علي الخطيب القائل (ومن يعصهما فقد غوي فقال بئس الخطيب أنت) والجواب أنه ثني الضمير هنا إيماء أن المعتبر هو المجموع المركب من المُحَبين أي أن محبة الله وحده دون رسوله محبة مدعاة مكذوبة ، ومن زعم محبة الرسول وحده دون محبة الله فقد كذب ولهذا قال سواهما إشارة إلي ذلك ، فالمراد تلازم المحبتين ، وقيل ذلك علي الأدب والأولي وهذا علي الجواز ، وقيل هذا لبيان الكراهة لا التحريم، والصحيح هو القول الأول.

32) باب قول الله تعالي (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

- الخوف في اللغة عرفه ابن فارس بأنه الذعر والفزع ، وذلك لتوقع حصول أذي أو عقوبة أو ضر يثمر قولا أو عملا أو اعتقادا لتفاديه .

- ومناسبة الباب لما قبله أنه سبق أن محبة العبودية هي المتضمنة للحب والخضوع لله تعالي مع الخوف والرجاء ، وقد سبق الكلام عن المحبة التي هي الوقود الذي يتحرك به الإنسان لما يريد ، فناسب أن يذكر الكلام هنا عن عبادة الخوف ، وفي الباب القادم عن عبادة الرجاء ؛ فإن الخوف والرجاء هما كجناحي الطير لا يصح سير الإنسان إلي ربه إلا بهما فإن الخوف يمنعه من العصيان بأنواعه والرجاء يدفعه للمسارعة إلي الطاعة وما يرضي الله سبحانه وتعالي ، فالإنسان في سيره إلي الله تعالي يحركه الحب ويحرسه الخوف ويسارع به الرجاء ؛ فإذا عدم الخوف بالكلية فهو الأمن من مكر الله وهو من الكفر الأكبر كما قال تعالي (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ، وإذا عدم الرجاء بالكلية فهو اليأس من رحمة الله وهو من الكفر الأكبر أيضا كما قال تعالي (لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أما إذا وجد أصلهما لكن يقِلاّن تارة وتارة يزيدان ففي القلة ينقص إيمان العبد بقدره مع بقاء أصله ، والموفق من وفقه الله تعالي .

واعلم أن الله سبحانه لن يجمع لعبده خوفين كما في الحديث القدسي (وعِزَّتِي لا أجمعُ على عَبدي خَوفيْنِ وأَمنيْنِ ، إذا خافَني في الدُّنيا أمَّنْتُه يومَ القيامةِ ، وإذا أمِنَني في الدُّنيا أَخَفْتُه في الآخِرةِ) .

قال في شرح الطحاوية في قول الطحاوي (والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما (((ومن المهم معرفة هذا الضابط؛ لأنه هو نكتة المسألة وعُقْدَتُها، وهو: أنَّ الأمن يكون كُفْراً إذا انعدم الخوف، واليأس يكون كُفْراً إذا انعدم الرجاء، فمن لم يكن معه خوف من الله عز وجل أصلاً - يعني أصل الخوف غير موجود- فقد أَمِنَ فهو كافر، ومن لم يكن معه رجاء في الله عز وجل أصلاً فقد يئس من روح الله فهو كافر .. الأمن لأجل عدم الخوف، واليأس لأجل عدم الرّجاء، فمن كان عنده خوف قليل ويأمن كثيراً فإنه من أهل الذّنوب لا من أهل الكفر، فإن لم يكن معه خوف أصلاً فإنه كافر بالله عز وجل، كما قال هنا: "يَنْقُلَانِ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ" أما أهل التوحيد،

أهل الذنوب من أهل القبلة، فإنهم بِقَدْرِ ما عندهم من الذّنوب يكون عندهم أَمْنٌ من مكر الله عز وجل ... وكذلك في اليأس من رَوحِ الله يغلب على المرء الموحّد تارةً أنه ييأس إذا نظر إلى ذنبه، أو نَظَرَ إلى ما يحصل في مجتمعه أو ينظر إلى ما قضى الله عز وجل في هذه الأرض وعلى أهلها من الشرك مثلاً أو من الذنوب أو من الكبائر أو من القتل أو من الفساد، فيأتيه اليأس، فإنْ غَلَبَ عليه اليأس بحيث انعدم الرجاء لنفسه أو للناس فإنه يكفر بذلك، أما إذا وُجد عنده اليأس ووُجد عنده رجاء فإنه لا يخرج من الملّة.)) **انتهي .**

فالخوف هو ما حجزك عن معصية الله وأما ما زاد علي ذلك فغير محتاج إليه .

قال ابن القيم في المدارج :

((قال - يعني الهروي -: وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: منع الخوف: أن لا يتعدى إلى اليأس،

وحبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن،

وضبط السرور: أن يضاهئ الجرأة.

يريد: أنه لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله, فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله, فما زاد على ذلك: فهو غير محتاج إليه، وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهل بها.

وأما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة, فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وهذا إغراق في الطرف الآخر، بل حد الرجاء: ما طيب لك العبادة، وحملك على السير، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة، فإذا انقطعت وقفت السفينة، وإذا زادت ألقتها إلى المهالك، وإذا كانت بقدر: أوصلتها إلى البغية)) انتهي كلامه .

ـ قال ابن تيمية في المجموع:

((وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ : فَهُوَ زِنْدِيقٌ ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ : فَهُوَ حروري ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ : فَهُوَ مُرْجِئٌ . وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَجْرِيدَ الْحُبِّ وَالذِّكْرِ عَنْ الْخَوْفِ : يُوقِعُ فِي هَذِهِ الْمَعَاطِبِ ، فَإِذَا اقْتَرَنَ بِالْخَوْفِ : جمعه عَلَى الطَّرِيقِ ، وَرَدُّهُ إلَيْهَا كَالْخَائِفِ الَّذِي مَعَهُ سَوْطٌ يَضْرِبُ بِهِ مَطِيَّتَهُ ؛ لِئَلَّا تَخْرُجَ عَنْ الطَّرِيقِ ، وَالرَّجَاء : حَادٍ يَحْدُوهَا ، يَطْلُبُ لَهَا السَّيْرَ ، وَالْحُبُّ قَائِدُهَا وَزِمَامُهَا الَّذِي يُشَوِّقُهَا ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَطِيَّةِ سَوْطٌ وَلَا عَصًا يَرُدُّهَا إذَا حَادَتْ عَنْ الطَّرِيقِ : خَرَجَتْ عَنْ الطَّرِيقِ ، وَضلَّتْ عَنْهَا.

فَمَا حَفِظَتْ حُدُودَ اللهِ وَمَحَارِمَهُ ، وَوَصَلَ الْوَاصِلُونَ إلَيْهِ : بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ ؛ فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ : فَسَدَ فَسَادًا لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا ، وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ : ضَعُفَ إيمَانُهُ بِحَسَبِهِ ..) **انتهي** .

وقال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين:

((هَذِهِ الثَّلَاثَةُ : الْحُبُّ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ ، هِيَ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى عِمَارَةِ الْوَقْتِ بِمَا هُوَ الْأَوْلَى لِصَاحِبِهِ وَالْأَنْفَعُ لَهُ ، وَهِيَ أَسَاسُ السُّلُوكِ ، وَالسَّيْرِ إِلَى اللهِ ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الثَّلَاثَةَ فِي قَوْلِهِ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ قُطْبُ رَحَى الْعُبُودِيَّةِ . وَعَلَيْهَا دَارَتْ رَحَى الْأَعْمَالِ)) **انتهي** .

وقال شارح الطحاوية في شرح قول الطحاوي :

((يجب أن يكون العبد خائفا راجيا ، فإن الخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط . والرجاء المحمود : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله ، فهو راج

لمغفرته ، قال الله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم.

أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب ، قال : أبو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله : أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وقال : " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ؛ فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمنا ، والخوف يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا وكل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله تعالى ، فإنك إذا خفته هربت إليه ، فالخائف هارب من ربه إلى ربه)) .**انتهي** .

وقال الشيخ ابن عثيمين في شرح الأصول الثلاثة:

((والمؤمن ينبغي أن يسعى إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ويغلب الرجاء في جانب الطاعة لينشط عليها ويؤمل قبولها، ويغلب الخوف إذا هم بالمعصية ليهرب منها وينجو من عقابها.

وقال بعض العلماء: يغلب جانب الرجاء في حال المرض وجانب الخوف في حال الصحة؛ لأن المريض منكسر ضعيف النفس وعسى أن يكون قد اقترب أجله فيموت وهو يحسن الظن بالله عز وجل، وفي حال الصحة يكون نشيطاً مؤملاً طول البقاء فيحمله ذلك على الأشر والبطر فيغلب جانب الخوف ليسلم من ذلك.

وقيل يكون رجاؤه وخوفه واحداً سواء ؛ لئلا يحمله الرجاء على الأمن من مكر الله، والخوف على اليأس من رحمة الله وكلاهما قبيح مهلك لصاحبه.)) . انتهي .

ويؤيد القول الأخير أن الله سبحانه كثيرا ما يجمع بين كونه سبحانه غفورا رحيما و أنه شديد العقاب ويقدم هذا تارة وهذا تارة فقال (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) ، وقال في آية أخري (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) فهذا هو الأصل لكن قد يغلب أحدهما علي الآخر في الحالات السابقة .

- فالخوف عبادة ؛ ودليل ذلك أن الله يحبه ويثيب عليه كما في قوله تعالي (فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين) ، وثناؤه علي ملائكته في قوله (يخافون ربهم من فوقهم) ، وقوله تعالي (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ، وقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله)

ودليل أنه لا يكون إلا لله الحصر والقصر في الآيات السابقة ونهيه عن الخوف خوف السر من غيره ، ودليل أنه شرك قوله (إن كنتم مؤمنين) ، ودليل أنه لا يصرف إلا لله الآيات العامة في إفراده بالعبادات والقران كله فيها منه قوله سبحانه (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) ، وقوله سبحانه (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

- والخوف علي ثلاثة أقسام باعتبار حكمه :

أولا:

الخوف الشركي المخرج من الملة وهو خوف السر ، وراقب نفسك ؛ فإنه يعرف بأحد أمور ثلاثة:

أ . أن يخاف من غائب حقيقة أو حكما أو حسا ، يخافه من أن يضره بأي وجه من أنواع الضر والعذاب في الدنيا أو في الآخرة بما لا يقدر عليه إلا الله ، كخوفه أن لا يشفع له ونحو ذلك

- ومثال الغائب الحقيقي من كان يبعد عن المكان حيا كان أو ميتا كأن يكون في بلد ويكون الخائف في بلد آخر ومع ذلك يخافه سواء ادعي أن ذلك كرامة للمخوف أو علي سبيل الاستقلال.

- ومثال المخوف الغائب الحكمي فهو الميت في قبره يخافه المشرك من أن يضره في الدنيا أو في الآخرة بأن لا يشفع له ونحو ذلك .

قال في التيسير::

((فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً، لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ندًّا يخافه هذا الخوف فهو مشرك.

وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لهم: {وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ، وقال تعالى عن قوم هود إنهم قالوا له: {إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ} ، وقال تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}.

وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت، كما يخافون الله بل أشد. ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبًا أو صادقًا، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذبًا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله. ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين، بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى)) **انتهي من التيسير** .

ومثال الغائب الحسي هو الخوف من ما لا ندركه بحواسنا كالخوف من الجن .

ب - أن يكون هذا الخوف من أن يمسه المخوف بضر عن طريق قدرة خارقة لا بأمر محسوس كما يصيبه الله بالمصائب في الدنيا من غير أسباب ظاهرة ولا شيءٍ يمكن الاحتراز منه ، فالمشرك يعتقد أن المخوف منه قادر علي أن يضره بدون أمر محسوس يُحدِث من خلاله الضرر ، فمتي خاف العبد هذا الخوف فقد كفر ؛ فإن الله - عز وجل - له الملكوت كله وله وحده الأمر جميعا لا لمخلوق كائنا ما كان ومن كان.

ج - أن يكون هذا الخوف من الغائب خوف تعظيم فيؤدي إلي طاعته خوفا منه أو عدم عصيانه خوفا منه ، فيطيعه ولا يعصيه خشية أن يمسه بعذاب !

واعلم - وفقني الله وإياك - أن هذا الشرك في هذه العبادة أو غيرها مستلزم للشرك في توحيد الربوبية أيضا وكذلك الأسماء والصفات كما بيناه أول الكتاب لأن أقسام التوحيد متلازمة ؛ الشرك في واحد منها شرك قي الجميع ؛ فخوف هذا المشرك من الغائب هو عبادة صرفها لغير الله ، واعتقاد أنه قادر علي إضراره ومعرفة حاله شرك في الربوبية والصفات .

ثانيا:

أن يقوده الخوف من مخلوق إلي ترك واجب أو فعل محرم دون إكراه معتبر شرعا ، فهذا من الشرك الأصغر وليس من الأكبر لأنه لم يخف خوف السر ، وهو من الأصغر لانطباق حد الأصغر عليه الذي تقدم بيانه في المقدمة التي لا بد منها بين يدي دراسة التوحيد العظيم .

ثالثا :

الخوف الطبعي وهو أن يخاف من مخلوق حي ، حاضر ، قادر أن يصيبه بأذي بسبب حسي ظاهر ، كالخوف من ظالم أو من حيوان مفترس.

وهذا الخوف لا يؤاخذ به الإنسان ولا يعاب عليه ، فإن ربنا سبحانه قد قال عن موسي (فخرج منها خائفا يترقب) يعني من فرعون ، وقال عن موسي وهارون (قالا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغي) .

١) قال السعدي في تفسير الآية التي هي عنوان الباب - بتصرف -:

{ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه }- أي: إنّ ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف - قلت أي أن الذين سيخافون ويجبنون عن الجهاد هم أولياء الشيطان ضعاف الإيمان ، وقيل في قول ثان يخوفكم بأوليائه أو يخوفكم أولياءه -

{ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين }- أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله)).

٢) وقوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} .

- الشاهد من الآية علي مقصود الباب الذي هو إفراد الله بعبادة الخوف قوله تعالي (ولم يخش إلا الله) والخشية شدة الخوف ، أي خشي الله وحده فلم يخش غيره خشية السر الذي تقدم أنه هو خوف العبادة الذي يجب أن يكون لله وحده وأن من خاف من غير الله سبحانه هذا الخوف فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

فخشي العبد الله وحده أي لم يخش غيره خشية السر ، ولا دون ذلك من الخشية التي تحمل علي فعل محرم أو ترك واجب.

- قال البغوي في تفسيره ((وَلَمْ يَخَفْ فِي الدِّينِ غَيْرَ اللَّهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ أَمْرَ اللَّهِ لِخَشْيَةِ غَيْرِهِ، ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وَ"عَسَى" مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ، أَيْ: فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ، وَالْمُهْتَدُونَ هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ))ز

قال في التيسير ((فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم .قلت :فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب، ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض)) **انتهي** .

- والفرق بين الخشية والخوف من وجوه:

أولا : أن الخشية أشد من الخوف لأنها مقرونة بالعلم بحال المخشي مع تعظيمه ، بخلاف الخوف فيكون ممن يذم أو يعظم ، ويكون أيضا مع العلم بحال المخوف ومع الجهل به ، فليس كالخشية.

ثانيا : أن الخشية تكون دائمة لأنها مقرونة بالعلم والتعظيم فمنبعها من القلب ، وأما الخوف فيكون عند وجود سببه.

ثالثا : الخشية تكون للعلماء وأما الخوف فللعامة ، قال تعالي (إنما يخشي الله من عباده العلماء)

- وأما الرهبة فهي شدة الخوف المقرون بالفرار والهرب ، وكل مخوف يهرب منه إلا الله سبحانه فإنك إذا خفت منه فررت إليه ، قال تعالي (ففروا إلي الله إني لكم منه نذير مبين).

- والوجل رجفان القلب من تذكر المخوف.

- أما الهيبة فهي خوف المحبين المقرون بإجلال وحب.

- وأما الإشفاق فخوف مصحوب باعتناء وحرص .

٣) وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} .

- قال البغوي في تفسيره:

قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله) أصابه بلاء من الناس افتتن (جعل فتنة الناس كعذاب الله) أي : جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة.

أي : جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه ، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه) **انتهي.**

- فهذه الآية دليل علي أن الموحد لا يخاف من مخلوق خوفا يدفعه لترك واجب أو فعل محرم ، بل لا يخشي إلا الله وحده ، ويصبر علي المحن والبلاءات ولا يبيع دينه ، ولا يشرك بربه ، فخوفه كله من الله وحده ، وما سواه فلا يخاف منه خوف سر ولا خوفا يزعزع دينه ، فالموحد أقوي الناس بإيمانه والله مؤيده وناصره وكافيه ومتوليه.

قال في التيسير :

(أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.
فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنْزلة ألم عذاب الله، وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال :إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق انتهى، قلت :وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} ، هو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة، وفي الآية رد على المرجئة والكرامية، وفيها الخوف على نفسك، والاستعداد للبلاء إذ لا بد منه مع سؤال الله العافية))**انتهي** .

وقوله أن الآية فيها رد علي المرجئة الكرامية فذلك لأنهم قالوا آمنا بالله لكن لما تخلفوا عن العمل كفروا فلم يغن عنهم إيمانهم الظاهر شيئا ، وقد فصلت الكلام في مرجئة الكرامية في كتابي الإيمان فراجعه غير مأمور .

٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: "إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره". والحديث ضعيف لكن معناه صحيح.

- اليقين هو الاعتقاد الجازم الراسخ الذي لا يعتريه أدني شك ، وقد تقدم أول الكتاب أن اليقين المنافي للشك شرط من شروط صحة وقبول قول الشهادة من قائلها ، وأنه إن خالطه أدني نسبة شك فليس بيقين ، وأوردنا الأحاديث في ذلك ، ، واليقين هو عمل واحد من أعمال القلوب التي تقدم في حديث عتبان وعبادة بن الصامت أنها ركن في الإيمان مع قول اللسان وعمل الجوارح ، وهذا اليقين شأنه كشأن أركان الإيمان يتفاضل الناس فيها وليس الناس فيها سواء بل يزيد وينقص ، ويقوي ويضعف ، **قلت في كتابي ((مسألة الإيمان)) ما نصه :**

((التصديق نفسه وهو عمل واحد من أعمال القلوب يزيد وينقص ويتفاضل المؤمنين فيه

لأسباب ذكرها ابن تيمية في كتابه منها (7 / 565، 564) وذكر مجملها الشيخ صالح في الطحاوية فقال :

أولا :

أن مسائل الشرع كثيرة سواء في الأمور الاعتقادية ، أو العملية ، وهذه كلها يجب الإيمان بها علي الإجمال والتفصيل ، فإيمان وتصديق من كان مقتصرا علي الإجماليات من جهال المسلمين ليس كإيمان وتصديق من صدق بكل ما علمه فتصديق من صدق بكل فروع الشريعة أعلي من تصديق من صدق بإجمال لا تفصيل فيه .

ثانيا :

أن الأعمال الظاهرة من امتثال الأوامر واجتناب النواهي تؤثر في التصديق ويؤثر فيها التصديق ، ويدل علي هذا قول النبي في الحديث الذي تقدم (لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن ...) ، قال (إذا زني العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا خرج من ذلك العلم عاد إليه الإيمان ،

فقوله (لا يزني حين يزني وهو مؤمن) لم يزل تصديقه بالكلية ولكن التصديق المستحضر بالله عز وجل وبالدار الآخرة فهذا قد غاب عنه ونقص حين قام بالمحظور؛ فالزاني والسارق من الفساق من جملة المسلمين كما سياتي في الرد علي الخوارج المكفرين بالكبائر وعلي كلّ فإن الأعمال الظاهرة تَزيد التصديق بزيادتها وينقص بنقصانها .

ثالثا :

أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمل القلب ، فتصديق المؤمن ليس كتصديق الكافر المستكبر ، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به صاحبه ، وعبادات القلوب تزيد في التصديق والتصديق زيادة يؤثر فيها ، وعمل القلب واحد وإذا قلنا عمل القلب نسميه كذا ونسميه كذا فباعتبار الإيضاح فاذا قوي التصديق قوي الخوف من الله وقويت المحبة وقويت غيرها من أعمال القلوب فكل عمل قلبي يؤثر في الأعمال الأخري .

رابعا : من عرف الله بأسمائه الحسني وصفاته العليا كان أكمل ممن لا يعلمها تفصيليا بل آمن بها إيمانا مجملا .

قال ابن تيمية (7 / 564):

(نفس التصديق والعلم الذي في القلب يتفاضل باعتبار الإجمال والتفصيل.
فليس تصديق من صدق الرسول مجملا من غير معرفة منه بتفاصيل أخباره، كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار، والأمم، وصدّقه في ذلك كله.
وليس من التزم طاعته مجملا ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به، كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلا وأطاعه فيه .

نفس العلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت، كما يتفاضل سائر صفات الحي، من القدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، بل سائر الأعراض من الحركة، والسواد، والبياض، ونحو ذلك، وعامة الصفات التي يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل .

فالعلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه .

والإنسان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه كما يتفاضل حاله في سمعه لمسموعه، ورؤيته لمرئيّه، وقدرته على مقدوره، وحبه لمحبوبه، وبغضه لبغيضه، ورضاه بمرضيه، وسخطه لمسخوطه، وإرادته لمراده، وكراهيته لمكروهه، ومن أنكر التفاضل في هذه الحقائق كان مسفسطا .... فمن قال: الحب لا يزيد ولا ينقص، كان قوله من أظهر الأقوال فساداً، ومعلوم أن الناس يتفاضلون في حب الله أعظم من تفاضلهم في حب كل محبوب، فهو سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً، واتخذ محمد أيضاً خليلاً، كما استفاض عنه أنه قال "لو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله"، يعني نفسه صلى الله عليه وسلم)**انتهى .**

وقال ابن رجب في الفتح (1/ 9) :

(قال المرّوذي : قلت لأحمد في معرفة الله بالقلب تتفاضل فيه ؟ قال : نعم ، قلت ويزيد ، قال : نعم

ذكره الخلال عنه وأبو بكر عبد العزيز في كتاب السنة – أيضا – عنه وهو الذي ذكره القاضي أبو يعلي من أصحابنا في كتاب " الإيمان "، وكذلك ذكره أبو عبد الله بن حامد .

وتفسير زيادة المعرفة بمعنيين :

أحدهما : زيادة المعرفة بتفاصيل أسماء الله وصفاته ، وافعاله ، وأسماء الملائكة والنبيين والكتب المنزلة عليهم ، وتفاصيل اليوم الاخر ، وهذا ظاهر لا يقبل نزاعا .

والثاني : زيادة المعرفة بالوحدانية بزيادة معرفة أدلتها ، فإن أدلتها لا تحصر ، إذ كل ذرة من الكون فيها دلالة علي وجود الخالق ووحدانيته ، فمن كثرت معرفته بهذا الأدلة زادت معرفته علي من ليس كذلك ، وكذلك المعرفة بالنبوات واليوم الاخر والقدر وغير ذلك من الغيب الذي يجب الإيمان به ، ومن هنا فرق النبي صلي الله عليه وسلم بين مقام الإيمان ومقام الإحسان وجعل مقام

الإجسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ، والمراد : أن ينور قلبه بنور الإيمان حتي يصير الغيب عنده مشهودا بقلبه كالعيان .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي في كتابه أن التصديق يتفاوت ، وحكاه عن الحسن ، والعلماء ، وهذا يشعر أنه إجماع عنده)) **انتهي كلامه** .

ونقل الإمام أحمد في فضائل الصحابة قول النبي صلي الله عليه وسلم :

(لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر).

وقال التابعي أبو بكر شعبة .

(ما سبقهم ابو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه)

وهذا الشيء هو التصديق فالناس يتفاضلون فيه فيأتيك ثقة فيقول لك حدث كذا فتصدقه واخر يقول لك حدث كذا فتصدقه وليس تصديق خبر هذا كالآخر من حيث القوة)) **انتهي من كتابي مسألة الإيمان .**

وهذا اليقين ينبغي علي الموحد أن يعمل علي زيادته وتقويته ، كما سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى لا شكا منه حاشا وكلا ، وإنما ليطمئن قلبه أي ليزداد إيمانا ويقينا علي يقينه ، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان ، ويؤيد أن إبراهيم لم يشك وإنما طلب تقوية اليقين أنه سأل عن كيفية إحياء الموتى ولم يشك هل الله سبحانه يحيي الموتى أم لا ؟ وأجابه الله سبحانه أولم تؤمن كاستفهام تقريري لا إنكاري.

ويزداد اليقين بالعلم النافع والعمل الصالح.

ويضعف بعدة أمور منها إرضاء الناس بسخط الله فيقدم ما يريدونه علي ما يريده الله منه وكلفه به أمرا أو نهيا ، فلا يطيعهم في معصية الله ولا يؤخر واجبا من واجبات الله لأجل الخلق أبدا فضل

عن أن يطيعهم في تحليل الحرام أو تحريم الحلال ، فالأول كفر أصغر والثاني كفر أكبر ، وإلا فهذا من أعظم علامات ضعف اليقين ونقصان الإيمان ولسوء الظن بالله سبحانه.

ومن علامات ضعف اليقين أن تحمد الناس علي رزق الله والمراد نسبة النعمة للمخلوق مع غفلة القلب عن المنعم بها ، فهذا من التعلق بالأسباب تعلقا أشد من تعلقه من مسبب الأسباب سبحانه ، وهو من ضعف التوكل في القلب واعتماده علي غير الله وهو داخل في الشرك الأصغر ، كما تقدم بيانه في باب الاستسقاء بالأنواء من نسبة النعمة لغير الله مع اعتقاد أنها من الله أولا وآخرا لكن يخالفه اللفظ ، والواجب علي العبد أن يعلم أن الله سبحانه لا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع ، وأن يأخذ مع ذلك بالأسباب المشروعة لكن لا يعلق قلبه بها ولا يعتمد عليها بل يجعل اعتماده وتوكله كله علي خالقه وحده سبحانه وتعالي ، وللمخلوق فقط الشكر كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم فيما صح (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) وفي حديث آخر (من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتي تروا أنكم قد كافأتموه) لكن يقدم حمد الله علي كل شيء ولا ينسي.

فاليقين في باب النعم الواصلة أن تعلم أن المعطي والمنعم بها هو الله ولولا تيسيره لمنعك إياها ، وأن تحمده وتشكره بلسانك وجوارحكم عليها ، ثم تشكر المخلوق ، ومن ضعف اليقين هنا أن تحمد المخلوق حمدا يقارب حمدك لله فضلا عن أن تساوي حمدك المخلوق بحمد الله ، فضلا عن أن تنسب الخير المخلوق وتنسي الله سبحانه أو تحمد وتشكره بعد شكر المخلوق.

والسبب الثالث من أسباب ضعف اليقين أن تذم المخلوق علي ما لم يؤتك الله ، كأن تطلب من مخلوق شيئا فلا يجيبك فتذمه ، والواجب عليك أن تعلم أن الله هو لم يقدر لك ذلك ، وأن تعلق قلبك به هو سبحانه ، وتسأله قبل سؤال المخلوق ، وتلجأ إليه ، فإن المخلوق الذي طلبت منه ورضي فإنه لا يمكن أن يتم إعطاؤه لك إلا إذا يسر الله ذلك فإن المعطي في الحقيقة هو الله وعبده سبب إن شاء أعمله وإن شاء عطله فقد يرضي المخلوق ولا يتم الأمر مع ذلك لأن الله لم يرده ؛ فإنه لا مانع لما أعطي سبحانه ولا معطي لما مانع ولا ينفع ذا الجد منه الجد أي لا ينفع الغني غناه من ربه

سبحانه ، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا علي أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف ، فما دامت هذه عقيدتك ازددت يقينا علي يقين ولم تعلق قلبك بمخلوق قدر علي ما تريد أو لم يقدر ، فمن ضعف اليقين أن تذم المخلوق ، ومن كمال اليقين أن لا يلتفت قلبك لغير الله سبحانه ، ولهذا قال في آخر الحديث (فإن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره) فهذا تعليل لما سبق بيانه.

وفي عيون الاخبار أن محمد بن واسع دخل علي قتيبة بن مسلم فقال له : أتيتك في حاجة رفعتها إلي الله قبلك فإن تقضها حمدنا الله وشكرناك ، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك) فرفع حاجته إلي الله أولا استعفافا وتوكلا علي الله واكتفاء به سبحانه وعدم التعلق بغيره.

فالموحد عزيز كريم لا يتعلق قلبه بمخلوق.

وكل خير في العاجل والآجل فبتقدير الله وإرادته وإذنه إن شاء أن يتم أتمه وإلا منعه ، وسبب كل خير هو طاعة الله سبحانه والائتمار بأمره والانتهاء عن ما نهي عنه.

- والشاهد من الحديث علي مقصود الباب أن ضعف اليقين سببه الخوف من غير الله أو رجاء غير الله ، فإن العبد إذا خاف غير الله أداه إلي التعلق به عن ربه ، أو ارتكاب محرم أو تفويت واجب دفعا لخوفه ، وإن رجي غير الله تعلق به قلبه عن ربه وفعل ما يرضيه ولو كان محرما ، وقصر في أداء الواجبات إذا كان ذلك يرضيه تحصيلها لرجائه فيه وما يرجوه منه ، وهذا كله من الشرك في هاتين العبادتين الجليلتين الخوف والرجاء بحسب التفصيل المتقدم بيانه.

وفي قطع تعليق الأمل والرجاء بالناس قال ابن القيم في تفسيره وفي طريق الهجرتين :

((لا أحد من المخلوقين يقصد منفعتك بل إنما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر فتدبَّر هذا حق التدبُّر، وراعِه حقَّ المراعاة، فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك، فإنه لا يريد ذلك البتة؛ بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلًا أو آجلًا، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه، فتأمَّل ذلك، فإن فيه منفعة عظيمةً، وراحةً ويأسًا من

المخلوقين، وسدًّا لباب عبوديتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده، فما أعظم حظٍّ من عرفَ هذه المسألة ورعاها حقَّ رعايتها! ، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس, وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم, بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم, فكما لا تخفهم لا ترجُهم، صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها، فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجاتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة, فهم يريدون أن يصيروك كالكير, تنفخ بطنك وتعصر أضالعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزُرون الشاة! وكم يذبحونك في كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسراً ومعبراً لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت والله إن هم إلا أعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين, وقطاع طريق في صورة أعوان، فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث.

متى شهد العبدُ أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يُصرفهم كيف يشاءُ، لم يَخَفْهم بعد ذلك، ولم يَرْجُهم، ولم يُنزِلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرفُ فيهم سواهم، والمدبِّرُ لهم غيرُهم.

فمن شهد نفسه بهذا المشهد، صار فقره وضرورته إلى ربِّه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يُعلِّق أمله ورجاءه بهم.)) **انتهي كلامه .**

قال في التيسير :

((واليقين المراد به :الإيمان كله كما قال ابن مسعود" :اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان"رواه الطبراني بسند صحيح، قاله الحافظ :ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق كما في حديث ابن عباس مرفوعًا" :فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا ")) انهي .

يعني أن الصبر وحبس النفس عن التسخط ، وحمل اللسان والجوارح علي الشكر واجب وأما الرضا بالمقدور فمستحب لكن الرضا بفعل الله واجب ، وراجع في ذلك ما قررته في كتابي (كتاب القضاء والقدر) في هذه المسألة - وفقني الله وإياك - .

وقال أيضا (قوله) :وأن تحمدهم على رزق الله (، أي :تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق، بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذي قدر هذا الرزق لك، وأوصله إليك بلطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا ولا ينافي ذلك حديث" :من لا يشكر الناس لا يشكر الله ."لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت، فإن لم تجد فجازهم بالدعاء...وفي الحديث أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة في الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته) **انتهي .**

وقد شرحت لك منزلة العمل من الإيمان بشيء من التفصيل في الجزء الأول في حديث عبادة بن الصامت وقول الرسول صلي الله عليه وسلم (أدخله الله الجنة علي ما كان من العمل)

٤) وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس" رواه ابن حبان في صحيحه.

- الموحد كامل التوحيد رضا الله عنده فوق كل شيء ولا يقدم عليه رضا مخلوق ولو سخط عليه جميع الخلق ، وأما من التمس رضا الخلق علي رضا الله فهذا قد وقع في الشرك بالإضافة إلي أنه سيخذله الله وسيخذله الناس ويكرهونه ، وسيعاقبه الله بنقيض مطلوبه ، ومن خذله الله فهو خاسر ولن يدفع عنه أحد ممن أرضاهم هذا الخسران .

- وفي التيسير ((وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم، فلو كان خوفه خالصًا لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب

العالمين الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله :(لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) وما أحسن ما قيل:

إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب :فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب، فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟**!** أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟**}** **!**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضي الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياذًا بالله من ذلك. فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان. وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيرًا من الناس يفعل المعاصي ويستهين ولا يرى أثرًا لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أُصيب فقد تكون عقوبته في قلبه كما قال تعالى} :فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . {اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)انتهي .

وبذلك ينتهي الجزء الثاني من تحرير وبيان مسائل التوحيد ، فاجتهد في فهمه واعتقاده واقرأه علي من عرفت من المسلمين جزاك الله خيرا ، وسيأتيك قريبا إن شاء الله أيها القارئ الكريم بيان سائر الأبواب في الجزء الثالث - نفع الله بك –

هذا ، وأسأل الله القبول مني ومنك ، وأن يغفر لي التقصير والجهل والخطأ إنه ولي ذلك ومولاه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلي اله وسلم وبارك علي نبينا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين

سبحانك اللهم وبحمد أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وأخيرا إليك فوائد أضفتها إلي الجزء الأول بعضها كان جوابا علي بعض السائلين أثناء إلقاء دروس التوحيد في المساجد ، وبعضها كنت قد نسيت إضافتها قبل نشر كتاب الجزء الأول :

١ .والأفراد المباركة شرعا كثيرة ، وغير المبارك مما يدعي فيه الناس البركة أكثر ، فإذا لم تعلم هل هذا الشيء مبارك أم لا فالأصل عدم البركة إلا بدليل من الكتاب وصحيح السنة أنه مبارك ، ولا تنس أن مجرد وجود النفع في الشيء لا يدل علي بركته إلا بنص ، ولأن البركة خير ونفع خاص

وقد عرفنا سابقا أنها كثرة الخير وثبوته ودوامه واستقراره وهذا لا يثبت إلا بنص ، فلا يقال مثلا أن العسل مبارك ؛ لأن البركة تحتاج إلي نص ، وليس كل شيء ثبت الانتفاع به يكون مباركا ؛ لأن البركة نفع خاص وقد عرفنا أنه دوام الخير وثبوته واستقراره ، وما لم يوصف بالنص أنه مبارك فلا يكون مباركا لكن يكون من جملة الأسباب النافعة.

٢ .وباب التبرك لا علاقة له بالقدر والتجربة كما ذكرنا في باب الأسباب والتعاليق ؛ وذلك لأن التبرك أمر غيبي لا يعرف إلا بطريق الشرع ، وأما تأثير الأسباب الذي يعرف عن طريق التجربة فهو أمر محسوس ولهذا اعتبره الشرع صحيحا معتدا به بخلاف التبرك فهو أمر غيبي لا يعرف إلا بوحي.

٣.ومما ورد عن الصحابة في إزالة ما تعلق به التاس بحجة التبرك - بزعمهم - دون إذن من الشرع أخرج ابن سعد في الطبقات (١٠٠-٢)عن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها ، قال : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت.

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالي - في موضع في المجموع ما نصه

((أمر عمر بقطع الشجرة التي توهموا أنها الشجرة التي بايع الصحابة النبي - صلي الله عليه وسلم - تحتها بيعة الرضوان لما رأي الناس ينتابونها ويصلون عندها كأنها المسجد الحرام أو مسجد المدينة))انتهي.

وسبب ذكر ابن عبد الوهاب لآية النجم (أفرأيتم اللات والعزي) هو أمر النبي صلي الله عليه وسلم بتكسير كل ما يعظمه الناس بلا دليل من كتاب ولا سنة وذلك سدا لكل ذريعة توصل إلي الشرك.

٤ .الكعبة مباركة لقول الله جل وعلا (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين) لكن لا تلتمس بركتها إلا علي الوجه المأذون به شرعا وهو الطواف حولها والتوجه إليها قبلة في الصلوات ، خلافا لما يحدثه بعضهم بالتمسح بها أو قص بعض كسوتها تبركا فهذا محرم ، والخطأ يدخل علي بعض الناس لعدم تفرقتهم بين بركة الذات وبركة العمل فالكعبة تنال بركتها بالعمل

المشروع كالطواف ونحوه ، وليست بركة ذات بخلاف بركة النبي - صلي الله عليه وسلم - فبركته بركة ذات وعمل ؛ ولهذا كان الصحابة يقتتلون علي نخامته ووضوئه ، وأما الحجر الأسود فغير مبارك لعدم الدليل علي ذلك ، وأما قولهم أن بركته بركة عمل كالكعبة ولذلك نقبله فأقول أن تقسيم البركة لبركة ذات أوعمل فهذا إنما يكون لما ثبت بالنص أنه مبارك ، وأما ما لم يرد فيه ذلك فلا يستدل فيه بالتعبد علي التبرك ، وقد علمنا في هذا الباب أن التبرك له ثلاثة شروط أولها أن يثبت بالنص كون هذا الشيء المعين مباركا ، فإذا ثبت ذلك نظرنا في الشرط الثاني وهو هل بركته الثابتة هذه بركة ذات أم عمل ولهذا كان الشرط الثاني هو أن تلتمس بركته علي الوجه الشرعي ، ولا يجوز تقديم الشرط الثاني علي الأول لأن التبرك موقوف علي ثبوت الدليل أولا أنه مبارك ، فإذا لم يثبت دليل بركته علمنا أن توجهنا له إنما هو تعبد محض لا تبرك ، وقد علمنا ضمن مسائل باب من تبرك وشجر ونحوها أن الحجر الأسود غير مبارك لعدم النص وأن تقبيلنا له فهو علي سبيل التعبد المحض لا التبرك وقال عمر رضي الله عنه فيه معروف أنه لا يضر ولا ينفع ، وما ورد من أنه نزل من الجنة أو أنه سبب لمغفرة الذنوب فهذا لا يستدل به علي بركته ، وذلك لأمرين : أولهما حديث عمر المتقدم وهذا وضح جلي ، ولو كان مباركا شرعا لنفع ، وثانيهما أن الاستدلال بما ورد أنه سبب لمغفرة الذنب فهذا استدلال في غير محل النزاع ؛ لأننا نريد دليلا علي أن هذه المغفرة بسبب بركته لا بسبب تعبدنا لله بتقبيله ، ففرق بين الأمرين.

٥ .ولا يقال تبارك إلا لله وحده ، فمن الغلط قول بعضهم تباركت يا فلان ، قال الشيخ محمد بن إبراهيم كما في معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد:

((هذا لا يجوز، فهو تعالى المبارِك، والعبد هو المبارَك. وقول ابن عباس ((تبارك الله)): تعاظم، يريد أنه مثله في الدلالة على المبالغة. والبركة هي دوام الخير وكثرته، ولا خير أكثر وأدوم من خيره سبحانه وتعالى، والخلق يكون في بعضهم شيء ولا يبلغ النهاية. فيقال: مبارك. أو: فيه بركة. وشبه ذلك)) انتهي ,

٦ .وبركة النبي الذاتية تتعدي في حياته لطالبها لا بعد مماته صلي الله عليه وسلم

٧ .ومما يبين أن الشرك مسبة لله سبحانه وتعالي ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قالَ((أُرَاهُ قالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَشْتِمُنِي ابنُ آدَمَ، وما يَنْبَغِي له أنْ يَشْتِمَنِي، ويُكَذِّبُنِي وما يَنْبَغِي له، أمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إنَّ لي ولَدًا، وأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: ليسَ يُعِيدُنِي كما بَدَأَنِي وليس بأو الخلق بأهون علي من إعادته) اتهي .

٨ .وفي باب ما جاء في الذبح لغير الله في مسألة الذبح للحي المعظم نقول إن ذبح تقربا إليه أو تعظيما له فقي هاتين الحالتين هو شرك أكبر ، وأما إن ذبح سرورا بقدومه واستبشارا بظهوره فإن كان في حضرته فهو محرم دون الشرك لكن الذبيحة في حكم الميتة سدا للذريعة ؛ فإن بين الذبح تعظيما لهذا المعظم في حضرته وبين مجرد السرور بقدومه بينهما شعرة وقد سد النبي صلي الله عليه وسلم كل ذريعة توصل الي الشرك ، و أما إذا لم يكن في حضرته لكن في مكان آخر غيره فهو جائز ، وهذا التفصيل هو الصحيح فإن نية الذابح ومقصده يختلف به الحكم في هذه المسألة ودليل ذلك ما تقدم في عمران بن حصين لما وجد النبي صلي الله عليه وسلم رجلا معلقا تميمة بسبب مرض الواهنة فاستفصل منه النبي صلي الله عليه وسلم سائلا إياه " ما هذه ؟ " وسبب ذلك الاستفصال أن الشرك منه ما هو أكبر مخرج من الملة ومنه ما هو أصغر لا يخرج من الملة، والاستفصال فيما هو محتمل للشرك بأحد نوعيه أو عدمه لا بد منه ، ولهذا فإن الصحيح في مسألة الذبح عند طلعة السلطان أنه ليس شركا أكبر بإطلاق في جميع حالاته بل الحكم يختلف بحسب ما تقدم ؛ فقد يكون شركا أكبر يكفر صاحبه وقد يكون محرما دون الشرك.

٩ .أصول الدعوة إلي الله : أصول الدعوة التي لا يعلمها كثير من الجهال المتصدرين:

1) دعوة الي التوحيد وتحذير من الشرك ، ومن لم يكن مشاركا في هذا الأمر الخطير فاعلموا يقينا أن توحيده ناقص ! لا مفر!

2) دعوة الي الاتباع وتحذير من الابتداع.

3) دعوة الي تحكيم شرع الله في كل شئ بدءا بالعقيدة وتحكيمها في جميع مناحي الحياة في العقيدة والعبادات والمعاملات والاخلاق والسلوك ..وليس كما فهم دعاة السوء بفهمهم القاصر علي انه تحكيم للحدود وفقط وهم أنفسهم مخالفون لشرع الله مبتدعون لا متبعون ، متلطخون بشركيات ونواقض !! فأين شرع الله فيهم !!!

4) الدعوة الي ذلك كله بالوسائل الشرعية السنية لا بالوسائل الكفرية الشركية ولا البدعية.

5) التحذير من كل مخالف فيما مر ..تحذير من المشركين والمبتدعين.

6) التحاكم في ذلك كله للكتاب والسنة (بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان الذين هم الجماعة الأولي وأعرف الناس بكلام الله ورسوله صلي الله عليه وسلم والذين زكاهم الله في كتابه وعلي لسان رسوله صلي الله عليه وسلم.

١٠ . ومما يؤيد الوجه الذي ذكرناه في سبب دخول المتقدم بالذباب للصنم النار وأنه ليس الإكراه وإنما لانه لم يكفر بالطاغوت ما ثبت عند ابن أبي شيبة في "المصنف" (17 / 537 - 538): عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي ذُبَابٍ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ قَدْ عَكَفُوا عَلَى صَنَمٍ لَهُمْ، وَقَالُوا: لَا يَمُرُّ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا قَدَّمَ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَدِّمْ شَيْئًا! فَأَبَى، فَقُتِلَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَدِّمْ شَيْئًا! قَالَ: لَيْسَ عِنْدي شَيْءٍ، فَقَالُوا: قَدِّمْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَالَ: وَأَيْشٍ ذُبَابٌ! فَقَدَّمَ ذُبَابًا فَدَخَلَ النَّارَ.

ومثل ذلك الآن لعبة بابجي وغيرها من الألعاب الالكترونية ففيها يتقربون لاصنام يسمونها وحوشا لينتقلوا لمرحلة أخري في الاعبة ، ولا شك أن فاعل ذلك كافر كالمتقرب بالذباب في الحديث ، ولهذا لعب بابجي ومثيلاتها من الألعاب الالكترونية محرم ، ولا عذر في الشرك إلا من مكره ولا ضرورة في الشرك كما بيناه في الجزء الثاني في باب ما جاء في النشرة.

١١ .ذكرنا في باب من الشرك لبس الحلقة والخيط أن المعلق لهذه الأشياء إن اعتقد أنها مستقلة في التأثير فهو شرك أكبر ، وإن اعتقد أن الله جعلها سببا وأن النافع والضار هو الله وحده فشرك أصغر لأنها ليست عبادة صرفها لله فليست شركا في العبادة ولم يعتقد استقلالها بالتأثير فليست شركا في الربوبية فانطبق عليها حد الشرك الاصغر انه نا كان في نوع تنديد لا تنديد كامل ودللنا علي أنه شرك أصغر بحديث الرجل الذي لم يبايعه الرسول صلي الله عليه وسلم فلما سئل عن السبب قال إن في يده تميمة ، ولو كان تعليق ذلك شركا أكبر لقال لأنه مشرك لا لسبب التميمة ؛ إذ لو كان مشركا شركا أكبر لما نفعه خلع التميمة شيئا وهو يعبد غير الله ، والآن أبين لك مناطات كونه شركا أكبر في حال اعتقادها مستقلة بالتاثير ، و هي أولا أنه شرك في الربوبية لاعتقاد المعلق شريكا مع الله في الخلق والتدبير ، وشرك في العبادة أيضا لتعلق القلب بها راجيا منها حصول النفع والضر.

١٢ .بينا والحمد لله حكم اللعن للمسلم العدل ، والمسلم الفاسق ، وحكم لعن الكافر الحي والكافر الميت فكانت أحكاما مهمة لا بد من تفصيل القول فيها كما بينت لك في الجزء الأول

لكن اعلم أنه لا يقال أن بعض من لا يكفر الكافرين كاليهود والنصاري وعباد القبور أنهم شبه عليهم مسألة اللعن ، كلا ، بل هؤلاء الممتنعين عن تكفير من كفره الله ورسوله أحد فريقين : إما دعاة لوحدة الأديان وهؤلاء لا يخفي كفرهم علي مسلم ، والفريق الآخر يزعمون أنهم لو ماتوا علي مفرهم لخلدوا في النار لكن مع ذلك يأبون أن يسموهم بما سماهم الله به وهؤلاء أيضا كفار بلا شك لأنهم لم يكفروا بالطاغوت ولو كانوا كافرين بالطاغوت لكفروهم ، فالممنوع هو اللعن فقط لأنه كما علمنا في الجزء الاول حكم بالمآل ، واما التكفير فبظاهر الحال.

١٣ . وهنا ثلاثة أمور لا بد من الانتباه لها فيما يتعلق بالنهي عن العبادات في أماكن الشرك للتعليلات الشرعية التي ذكرناها في باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله:

أول هذه الأمور التي ينبغي أن تنتبه لها :

أن العبادات كلها محرمة عند القبور كصدقة أو صلاة أو ذبح أو غيره ، وأما كنائس النصاري فقد صلي فيها بعض الصحابة فصلاتنا التي بركوع وسجود مستثناة لمخالفة صلاتهم في الصورة كما علمنا في الجزء الاول ، و هذا الاستثناء أيضا لكنائس النصاري دون الأضرحة ؛ وذلك لاختلاف صورة صلاتنا عن صلاة النصاري المشركين فانتفت المشابهة الظاهرة ، وأما عباد الأضرحة فهم منتسبون للإسلام والمسلمين في الظاهر وعباداتنا هي عباداتهم ولهذا لا يستثني من العبادات شيء في الحرمة عند القبور خلافا لصلاة بعض الصحابة في كنائس النصاري.

ثانيا:

أنه حتي صلاتنا في كنائس النصاري مشروط مع اختلاف صورة العبادة مشروط أيضا بأن لا تكون الكنيسة معدة لحرب المسلمين ومضارتهم والكيد لهم وإلا فتحرم صلاتنا هناك أيضا وإن اختلفت عن صلاتهم في الصورة الظاهرة وذلك لأنها من أمكنة العذاب كمسجد الضرار الذي نهى الله رسولنا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه وقال لا تقم فيه أبدا ؛ لأنه معد على شفا جرف هار ينهار بهم في نار جهنم والعياذ بالله ، فإن قلت وكذلك كنائس النصارى معدة على معصية الله قلت لك لكنها لم تعد على الكيد للمسلمين وإضرارهم ولهذا اشترطنا هذا الشرط الثاني بعدم المضارة فتجوز مع عدم المضارة وتحرم مع المضارة وذلك جمعا بين الادله فان كبار الصحابه صلوا فيها ولم يعلم عن أحدهم مخالف لذلك فهذا إجماع منهم على الجواز مع تحريم الصلاة في أماكن الضرار كما في سوره التوبة ولهذا نقول جمعا بين الأدلة أنه تجوز الصلاة في الكنيسه إن اختلفت صلاتنا عن صلاتهم في الصوره بشرط ألا تكون معدة للضرار بالمسلمين.

الامر الثالث :

في حديث نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الوفاء بالنذر في مكان يشرك فيه بالله هل يناقض جعل اللات مسجدا بعد ان ازالها مغيره بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عام الفتح قلت لك لا بل المناقضه في الافهام والاذهان بل جعل محل اللات مسجدا إنما كان لقوة المعارض وهو خشية افتتان الناس بها مع قرب العهد بمحوها وايضا لان عبادتهم هناك لم تكن صلاه بل كانت بصب

السمن والعسل عليها تقربا فاختلفت عبادتنا في هذا المسجد عن عبادتهم عند اللات ،وبوانة كان الشرك فيها بالنذر فحصلت الموافقه في العباده ظاهرا فنهى عنها الرسول فان قلت ألم تقرروا أن جميع العبادات تحرم في أمكنة الشرك قلت لك نعم لكن هنا لقوه المعارض كما ذكرنا جاز الصلاه عندها فان قلت ولماذا لم يحصل ذلك في صنم ذي الخلصه والشرك الحاصل هناك اشد من ما عند اللات قلت لك لان ذلك المعارض لم يكن عند ذي الخلصة ؛ بل ذهبت وتلاشت فلم يبق لها أثر فيعود الحكم للاصل وهو تحريم اي عباده هناك مفارقة ومباينة لما كان يفعل عنده من الشرك.

١٤ . ذكرنا صورة من صور الاعتماد علي السبب اعتمادا يساوي أو أكبر من الاعتماد علي الله ، والان أذكر لك صورة أخري وهي أن بعض المرضي يظل المريض به سنين وهو لا يفكر في العلاج برقية نفسه بنفسه ولو مرة ، ولا يدعو الله إلا قليلا مع أنه لا يترك مكانا إلا ويذهب اليه باحثا عن دوائه ، و إن شفاه الله ينسب الشفاء للدواء وينسي شكر المنعم وقد سبق بيان ذلك في الجزء الثاني هنا في باب أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون.

و من صور كون ترك الدواء في هذه الحالة من مكملات التوحيد : تركه:

إما لعدم حصول نقص في واجب أوجبه الله عليه ولا فوات مستحب فقد سبق أن التداوي في هاتين الحالتين مباح وتركه أولي ؛ استسلاما للقضاء وتلذذا بالبلاء.

وإما لعدم الجدوي منه مع محاولات للاستشفاء به فحينئذ فاترك الدواء واستسلم لربك داعيا راجيا مؤملا ما عنده محسنا الظن به .

فهرس الجزء الثاني